التناص اللغوى

نشأته وأصوله وأنواعه

دكتور
نعمان عبد السميع متولي

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٨١١.٠٠٩
م . ن

متولي، نعمان عبد السميع .

التناص اللغوي نشأته وأصوله وأنواعه / نعمان عبد السميع متولى .-
ط١.- دسوق : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع ،

٢٣٦ ص ؛ ١٧.٥ x ٢٤.٥سم .

تدمك : 1 –414 – 308 – 977 – 978

١. لغة – تاريخ.   أ - العنوان .

رقم الإيداع : ٢٠١٤-١٥١٣٦.

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة
هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس: ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١
E-mail: elelm_aleman@yahoo.com
elelm_aleman@hotmail.com

2014

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ
لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ
عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة فاطر ٣٢ : ٣٤] .

صدق الله العظيم

إهداء

إلى قريتى (ميت الليث هاشم) ..

مـــراتـــع الصبـــا ..

.. ومهـــد الذكـــريات

.. ودفء الأهل والأصدقاء

نصيحة

عزيزي القارىء :

قد تبكي بكاء المضطر من شدة الألم ، أو القهر ،

وتنام ..... ولكن الله تعالى لا ينام عن تدبير أمورك ....

تمهل ! إنه يدبر لك في الغيب أمورًا لو علمتها لبكيت فرحا .

مفتتح

يأتي هذا الكتاب (التناص اللغوي) ليناقش ظاهرة من الظواهر التي نلمسها كثيرا فيما نقرأ ونتأمل من نتاج أدبي وعلمي وفيما يقع تحت أعيننا من ثمرات وإنتاج العقل البشري ، ذلك أن الله الخالق قد أبدع العقل وصوره أحسن تصوير ، وأودع فيه ملكة الابتكار والاختراع والابتداع ، كما أودع فيه ملكة التقليد والمحاكاة ، وما المخترعات التي يسرت انتقال الإنسان إلا محاكاة وصورة لما خلق الله وأبدع - وهيهات أن يبلغ الإنسان معشار مخلوقات الله (الذي خلق فسوى) وصور فأبدع - فالسيارة تقليد للجياد والإبل التي يسرها الله لانتقال الإنسان ، وما الطائرة إلا تقليد للطائر ذي الجناحين فجاء اختراعها عونا لانتقال الإنسان من مكان إلى مكان . ولا شك أن في التقليد والمحاكاة خيرا عاد بالنفع الكثير على البشرية وما خلق الله .

إذا كان التقليد في المجال المادي قد أفاد ، فلا شك أن نفعه يتضح في مجال الإبداع الأدبي ، وما التناص إلا الاستعانة بنصوص أخرى بقصد إنتاج نص جديد ، مع أخذ النصوص المستعان بها في

الاعتبار، بحفظ حق صاحبها في الإعلان عن الجزء المأخوذ والتصريح باسم صاحبه حفظا لحقه.

ونظرا لتشابك الحياة وتداخل أمورها وكثرة ما يقرأ الإنسان فقد يأتي – دون قصد منه – بفكرة تكون قد رسخت في عقله الباطن واستقرت في لا شعوره وذاكرته ومن ثم يجترها ظانا أنه السابق إليها والحقيقة غير ذلك، لذا يكتب الأديب وهو تحت سلطان ونفوذ مخزون ما قرأ وحصل من قبل، وهذا ما دعا نقاد الأدب والمختصين إلى اعتبار ما يكتب نتاج نصوص سابقة وليس هذا عيبا أو ضعفا في الأديب أو المبدع.

من هنا كان الداعي إلى تناول موضوع التناص والولوج إلى عالمه ومكوناته.

وقد جعلت الكتاب في أربعة فصول، جعلت الأول منها للمصطلح ونشأته، وجعلت الفصل الثاني عن التناص في التراث القديم حيث تناوله أجدادنا العرب وكان لهم قصب السبق في الإشارة إليه فقد تناولوه تحت مسمى السرقة والأخذ، أما الفصل الثالث فقد جعلته لأنواع التناص، وقد أكثرت من ذكر النماذج التناصية من الشعر ومن النثر، ويلاحظ أني ذكرت قصائد طويلة كاملة مثل نماذج

المعارضات الشعرية ، (بردة البوصيري ونهج البردة لشوقي ، وسينية البحتري ، وسينية شوقي ، ونونية ابن زيدون ، ونونية شوقي) ، ذكرتها كاملة لروعتها ، وحرصا مني على إشراك القارىء معي في الاستمتاع بما في هذه المعارضات من جمال صياغة وعظمة محتوى.

وأشير إلى أن هذا الموضوع (التناص) تناوله أساتذة أفاضل كثيرون من قبلي ، ولأن باب العلم مفتوح ، وميدان المعرفة متسع ، فرأيت أن أتحدث في الموضوع نفسه علّي أضيف شيئا ، وآمل ذلك ، وأتمنى أن يجد القارىء في محتوى الكتاب بعض الفائدة ، داعيا الله العلي القدير أن يجعلنا من طالبي العلم ، وأن يحسن ختامنا .

د / نعمان عبد السميع متولي

قطر (الدوحة)

الفهرس

تقديم

كان من نتاج تقدم الدراسات اللغوية أن برز الاهتمام بمفهوم النص وعلاقاته المتعددة بدءاً من بنيته الداخلية إلى ما يؤثر فيه من عوامل خارجية وما يتعلق به من عناصر كالمرسل والمتلقيّ والتلقيّ والسيّاق والمرجع والتأويل والتناص والتفسير.

وفي ضوء ما حققته الدراسات الألسنية والسيميولوجية من تقدم في مجال النقد الأدبي رأيناه ملموسا في ظهور الأسلوبية والبنيوية والتفكيكية ، فقد تغيرت كثير من المفاهيم النقدية عما كانت عليه من قبل وأخذت مناهج النقد الحديثة على عاتقها تأصيل مفهوم الاهتمام بالنص بعيدا عن المؤلف فحين نتأملها نجد الأسلوبية تتناول بنية النص من معنى ونحو وصرف وتراكيب ودلالات ، على حين تهتم البنيوية بمكونات العمل الأدبي وما يقوم عليه من وحدات تسهم قي تشكيل هيكله ، وفي الوقت نفسه تهتم التفكيكية بتحليل النص وتفكيكه إلى جزئياته بهدف إعادة بنائه ووحدته ، وهذه المناهج كلها تهتم بالنص فقط مما يعني موت المؤلف ، وانتهاء دوره بعد فراغه من

كتابة عمله الأدبي ، وبمعنى أكثر دقة ووضوحا يصبح العمل الأدبي (شعرا أو نثرا ملكا للقارىء والناقد والمختصين) .

وكانت ظاهرة التناص أبرز دليل على انتهاء دور المؤلف " هذا المصطلح الذي عمق من مسألة قتل المؤلف وإقصائه انطلاقاً من تعريف النص بأنه مجموعة من النصوص المتداخلة فيما بينها، لا وجود لبداية أولى في الكتابة الإبداعية، ولا وجود لكتابة تبدأ من نقطة الصفر، فالنصوص سابقة للنص ومتداخلة فيه مما يزيح سلطة المؤلف ويلغي ادعاءه بانتماء النص إليه أو تبنيه. فالتناصية Intertextualite تذهب إلى أن فهم النص يحتاج إلى الرجوع إلى عشرات النصوص التي سبقته، وأسهمت في تكوينه ودور القارئ ينحصر في عملية الاستحضار لمجموع النصوص المتداخلة مع النص المقروء، وتبرز فاعلية القراءة في إحالتها إلى قراءات أخرى سابقة عليها وفق جدلية الغياب والحضور بين الدال والمدلول. "

ولأن التناص قضية فنية تتعلق بما نراه على الساحة الأدبية من نصوص تتفق مع بعضها في جوانب ، أوتختلف في جوانب أخرى فهذا أمر يغري بأن ندلي بدلونا بالحديث عن مفهوم التناص ، وما يتعلق به من أمور فنية ، علما بأن أساتذة أجلاء وباحثين ومختصين فضلاء ،

تعلمنا على أيديهم كان لهم السبق في تناول هذا المصطلح ، ومن منطلق أن الساحة الأدبية والنقدية فسيحة مترامية الأطراف، فلا بأس إذن من أن نتناول الموضوع من وجهة نظرنا ، المتواضعة.

الفصل الأول :

مفهوم التناص ونشأته

المعنى المعجمي

ورد في (لسان العرب)

نص :

النَّصُّ: رفْعُك الشيء. نَصَّ الحديث يَنُصُّه نصّاً: رفَعَه.

وكل ما أُظْهِرَ، فقد نُصَّ.

وقال عمرو بن دينار: ما رأيت رجلاً أَنَصَّ للحديث من الزُّهْري أي أَرْفَعَ له وأَسْنَدَ. يقال: نَصَّ الحديث إِلى فلان أي رفَعَه، وكذلك نصَصْتُه إِليه.

ونَصَّت الظبيةُ جيدَها: رفَعَتْه.

وكل شيء أَظْهرْته، فقد نَصَّصْته.

والمِنَصّة الثياب المُرَفَّعة والفرُشُ الموَطَّأَة.

ونصَّ المتاعَ نصّاً: جعلَ بعضه على بعض.

وأَصل النَّصّ أَقصى الشيء وغايتُه، ثم سمي به ضربٌ من السير سريع ونصُّ كلِّ شيءٍ: منتهاه.

قيل: نصَصْتُ الرجلَ إِذا استقصيت مسأَلته عن الشيء حتى تستخرج كل ما عنده،

ويقال: نَصْنَصْت الشيءَ حركته.

ونَصَّ الشيءَ: حركه.

وورد في (الصّحاح في اللغة)

قولهم: نَصَصْتَ ناقتي، قال الأصمعيُّ: النَّصُّ السيرُ الشديدُ حتَّى يستخرج أقصى ما عندها. قال: ولهذا قيل نَصَصْتُ الشيءَ: رفعته.

ومنه مِنَصَّةُ العروسِ.

ونَصَصْتُ الحديث إلى فلان، أي رفعته إليه.

وسيرٌ نَصٌّ ونَصيصٌ.

ونَصَصْتُ الرجلَ، إذا استَقْصَيْتَ مسألته عن الشيء حتَّى تستخرج ما عنده.

ونَصُّ كلِّ شيء: منتهاه.

نص) وفق ما مر تعني رفع الشيء، أي أخذه ، أي تحريكه ، أي جعله بعضه على بعض ، وكل هذه المعاني تقرب منا مفهوم التناص اللغوي وأن معناه دخول النصوص في بعضها .

وهذا المصطلح ليس جديدا على ثقافتنا النقدية ، لأن له جذورا في كتب تراثنا النقدي إذ ورد تحت مسميات أخرى كالاقتباس ، والأخذ ، والتضمين ، وما يدخل في إطار التداخل والتشابك بين النصين النص الجديد والنص القديم ، دون أن نتخلى عن القديم تماما .

والكاتب أو الشاعر مع كثرة ما يقرأ يختزن في ذاكرته ما يعي من معارف ومعلومات ، تظل عالقة حاضرة في ذهنه ، حتى إذا هم

بالكتابة ، أو البدء في عمل جديد يستدعي ما وقر في نفسه وعقله من هذه المعلومات ، فيستعين بها ويتأثر بها : بفكرة ، بمعنى ، بتركيب معين ، بالمحتوى بوجه عام ، ويتم ذلك بقصد منه ، أو بدون قصد ، ويضمنه ما شرع فيه من عمل أدبي جديد ،وبصورة أوضح فإنه يتناص مع مخزون ذاكرته ومحصلة ما استوعب بوسيلة من الوسائل **الآتية** :

١- أن يعيد الأديب أو الشاعر قول من سبقوه بصياغته هو، وهو عندئذ يأخذ محتوى او فكرة النصوص الأخرى .

٢- أن يقوم بتعديل في كتابات سابقة حول موضوعه الذي يكتب فيه بتقديم عبارات ، أو تأخير بعضها ،أو تغيير أساليب معينة ، أو حذف أجزاء من النص واستبدالها بأخرى .

٣- أن يقتبس من عدة موضوعات عبارات ذات صلة بنصه الذي يكتب فيه ، مع الإشارة إلى موضع الاقتباس وصاحب النص المقتبس منه .

٤- أن يستشهد لموضوعه بكتابات أخرى يدعم بها نصه الجديد ، مع الإشارة إلى مصدر الاستشهاد وصاحب النص المستشهد به .

٥- أن يسرق نصا أو موضوعا ما وينسبه لنفسه . (وفي هذه الحالة يكون معتديا على حقوق الآخرين ، ويعرض نفسه للمساءلة القانونية) .

٦- أن يأتي الأديب أو المبدع بالنص الموازي ، وهو كما أشار إلى ذلك د. عبد الفتاح الحجمري في كتابه " عتبات النص " الصادر في الدار البيضاء، العام ١٩٩٦ بأنه (عبارة عن ملحقات نصية وعتبات نطؤها قبل ولوج أي فضاء داخلي، كالعتبة بالنسبة إلى الباب، أو كما يقول المثل المغربي: أخبار الدار على باب الدار، أو كما قال جنيت نفسه في شكل حكمة : احذروا العتبات !!) .

والتناص وإن كان وافدا إلينا من الغرب فبدا لنا شيئا جديدا على الساحة الأدبية إلا أنه عولج في مؤلفات السابقين ، فعرضه ابن رشيق القيرواني ، وابن الأثير ، والجرجاني ، وابن طباطبا العلوي وكثير من النقاد العرب وشيوخ اللغة القدامى تحت مسمى السرقة ، كما تناوله في عصرنا الحديث كثير من النقاد فعرض له الدكتور بدوي طبانة في كتابه السرقات الأدبية وأوجزه في الأنواع الآتية :

١- **الاصطراف** : وهو أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه.

٢- **الانتحال** : أن يدعي الشاعر شعر غيره وينسبه إلى نفسه .

٣- **الادعـــاء** : أن يـدعى غير الشاعر لنفسه شعر غيره ، والفرق بين الادعاء والانتحال ، أن الانتحال أخذ الشاعر من الشاعر ، أما الادعاء فهو سرقة غير الشاعر من الشاعر.

٤- **الإغارة** : أن يصنع الشاعر بيتا ويخترع معنى مليحا فيتناوله من هو أعظم منه ذكرا ، وأبعد صوتا فيروي له دون قائله .

٥- **الغصب** : أن ينسب الشاعر شعر غيره لنفسه عنوة رغم قيام الحجة، مثل ما صنع الفرزدق بالشمردل اليربوعي ، وقد سمعه ينشد في محفل من المحافل :

فما بين من لم يعط سمعا وطاعة وبين تميم غيرُ حز الحلاقم

فقال الفرزدق : والله لتدعنّه أولتدعن عرضك ! فقال : خذه لا بارك الله لك فيه .

٦ - **المرافدة** : أن يعين الشاعر صاحبه بالأبيات يهبها له .

٧- **الاهتدام** : وهو أن يأخذ الشاعر البيت أو البيتين وهو بمعنى السرقة

٨- **النظر والملاحظة** : أن يتساوى المعنيان دون اللفظ مع خفاء الأخذ.

٩- **الاختلاس** : وهو تحويل المعنى من غرض إلى غرض ، كتحويل المديح مثلا إلى الوصف .

١٠- **الموازنة** : وهو يقتصر على أخذ أبنية الكلمات.

١١- **الموارد**ة : أن يتفق الشاعران دون أن يسمع أحدهما شعر الآخر ، بشرط ان يكونا في عصر واحد .

١٢-**الالتقاط والتلفيق** : وهو أن يؤلف البيت من أبيات قد ركب بعضها من بعض ، وبعضهم يسميه الاجتذاب والتركيب .

١٣-**كشف المعنى** : وهو إظهار المعنى الذي تحدث فيه الأول من طرف الأخير.

١٤- **المجدود** : وهو أن يشتهر المعنى ويظل جاريا على الألسنة في جدة متميزة .

وأول من ذم السرقة من الشعراء طرفة بن العبد في قوله :

ولا أغير على الأشعار أسرقها　　عنها غَنيتُ وشر الناس من سرقا(٣)

يقول الدكتور بدوي طبانة :" والرفقاء منهم يتلطفون في تلك الألقاب تحرزا من الخطأ وإحسانا للظن فيسمونه : اقتباسا ، وأخذا ، وتضمينا ، واستشهادا ، وعقدا ، وحلا ، وتلميحا ، وغير ذلك من الألفاظ المهذبة (٤).

وفي ذلك يرى القاضي الجرجاني : " أن السرق داء قديم ، وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه ، وكان أكثره ظاهرا كالتوارد ، وإن تجاوز ذلك قليلا في الغموض لم يكن فيه غير اختلاف الألفاظ "(٥)

" ولم يسلم أكابر الشعراء من رميهم بالسرقة ، وانتهاب أفكار غيرهم ، وهي

أشد وأقسى ما يتهم به الفحول الموهوبون ، وكثيرا ما يكون هذا الرمي من أثر التهافت والحسد "

وقديما ادعى جرير على الفرزدق السرق فقال :

سيعلم من يكون أبوه قينا ومن عُرفت قصائده اجتلابا

وادعى الفرزدق مثل ذلك على جرير فقال :

إن استراقك يا جرير قصائدي مثل ادعاك سوى أبيك تنقل

ومن السرقات : قال بشار بن برد :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

أخذه دعبل الخزاعي فقال :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور (٦)

ويرى أبو هلال العسكري أنه لا سرقة في المعاني والأفكار، وأن السرقة مقصورة على أخذ ألفاظ السابق ونقلها .

" وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم ، فليس على أحد عيب إلا إذا أخذه بلفظه كله ، أو أخذه فأفسده ، وقصر فيه عمن تقدمه ، وربما أخذ الشاعر القول المشهور، ولم يبال كما فعل النابغة الذبياني ، فإنه أخذ قول وهب بن الحارث بن زهرة:

تبدو كواكبه والشمس طالعة   تجري على الكأس منه الصاب والوقر

وقال النابغة :

تبدو كواكبه والشمس طالعة   لا النور نور ولا الإظلام إظلام(٧)

وفي الإطار نفسه قال أبو تمام :

يعيش المرء ما استحيا بخير   ويبقى العود ما بقي اللحاء

فلا والله ما في العيش خير   ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

وقد قال بشار بن برد في المعنى نفسه ومن نفس البحر الشعري :

يعيش المرء ما استحيا بخير   ويبقى العود ما بقي اللحاء

إذا لم تخش عاقبة الليالي   ولم تستحي فافعل ما تشاء

واضح أن التشابه ماثل في المعنى وفي الألفاظ، حتى في البحر الشعري ، والسرقة فيه واضحة وضوح الشمس .

تعريف التناص :

(التناص) يعني حدوث تفاعل أو تشارك بين نصين يستفيد أحدهما من الأخر.

ويطلق عليه بعض الباحثين مسميات كثيرة منها :

العلاقة بين النصوص.

المتعالقات النصية.

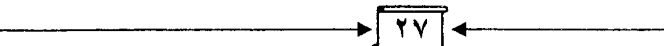
التداخل النصي.

التفاعل النصي.

وبمعنى أوضح : هو تداخل نصوص أدبية مختارة قديمة أو حديثة شعرا أو نثرا مع نص القصيدة الأصلي، بحيث تكون متسقة وفي إطار الفكرة التي يطرحها الشاعر.

نشأة مصطلح التناص :

كان أول ظهور لمصطلح التناص عام ١٩٦٦ على يد (جوليا كريستيفا) ، إذ عرفت التناصب أنه (التفاعل النصي بعينه) وهي ترى أن النص (عبارة عن فسيفساء من الاقتباسات ، وهو نص تشرب وتحول لنصوص أخرى) أما (ليتش)فيرى أن النص ليس ذاتا مستقلة أو مادة موحدة ولكنه سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى ،



وتوالت دراسات الغربيين حول هذا المصطلح إلى أن جاء الفرنسي (جيرار جنت) فحدد أنواع التناص .

وكل هذه الأقوال والتعريفات تبرز لنا الحقائق التالية :

- النص الأدبي نتاج نصوص كثيرة تكمن في مخزون الشاعر بوعي أو بدون وعي .
- النص الأدبي يتداخل عادة مع نصوص أخرى بأي شكل من الأشكال ، بالألفاظ ، أو بالتراكيب ن أو بالصور ، أو بالفكرة .
- النص الأدبي يتعالق (أي : يدخل في علاقة مع نصوص أخرى) .
- النص الأدبي لا حدود له ، بمعنى أنك لا تستطيع أن تفصله أو تقيم حدودا بينه وبين النصوص الأخرى .

وإذا كان هو المفهوم والانطباع الحديث لدى الباحثين المعاصرين ، فلا يوجد اتفاق أو إجماع على مصطلح محدد ، فهناك من يحلو له أن يطلق عليه (التناص) ، ومنهم من يفضل مفهوم (التناصية) أو (تعالق النصوص) أو (تداخل النصوص) على خلاف ما يزال قائما بين الباحثين ونقاد الأدب .

وجدير بالذكر أن التناص يوجد عددا من التساؤلات :

- هل للنص الأدبي حدود يقف عندها ؟
- هل للنصوص علاقات ببعضها ؟

- ما طبيعة هذه العلاقات ؟ وما حدودها ؟

فهذا (ليتش) يرى أن النص ليس ذاتا مستقلة ، أو مادة موحدة ولكنه سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى .

ويرى (روبرت شولز) أن معنى التناص يختلف من ناقد إلى آخر.

ويفهم من ذلك كله أن التناص أخذ وتأثر متعمد وبوعي كامل من الشاعر أو المبدع أو بدون شعور منه .

ومعنى ذلك أن النص الشعري لا ينفصل عن غيره من النصوص الأخرى ، إنما هناك صلة تربطه بغيره ، وأن ما نراه من نصوص يرتبط بغيره بوسيلة أو بأخرى ،عن قصد من الشاعر أو دون قصد منه ، فما الذئب إلاَّ مجموعة خراف مهضومة ، وما الأعمال الأدبية إلا مجموعة أعمال هضمها الشاعر أو الأديب ، وعاشت في ذاكرته ، واختزنها في لا شعوره ومن ثم يخرجها بعد ذلك ويضفى عليها من أسلوبه ، ومن أقوال الإمام علي بن أبي طالب " لولا أن الكلام يعاد لنفد " وقديما قال الشاعر:

اقـــرأ تقـــل إن الكـــلا م مـــن الكـــلام يعـــاد

وقد فطن العرب إلى أخذ الشعراء من بعضهم : منهم من يأخذ فكرة ، ومنهم من يأخذ بيتا ، أو شطرا من بيت ، أو تركيبا معينا ، أو صورة ، وقد نسب إلى كعب بن زهير أنه أدرك ما شاع بين الشعراء من سرق وأخْذ فقال :

ما أرانا نقول إلا معارا   أو معادا من القول مكرورا

ومما يروى عن أبي نواس أنه ذهب إلى حماد الراوية ، وقال له : علمني الشعر ، فقال له : اصحبني ، حتى أخرجك ، فصحبه فترة من الزمان ، بعدها قال له حماد الراوية : اذهب ولا أرينك حتى تحفظ ألف أرجوزة من الشعر ، فإن حفظتها فارجع إليّ ، وبعد عام جاء إليه وقال: لقد حفظت يا سيدي ما طلبت ، فقال له : انساها إذن ، ولا أرينك إلا بعد فترة ، ولما عاد إليه بعد عدة أشهر قال له حماد : تخيل أني مت ، واكتب فيّ قصيدة رثاء ، وكتب أبو نواس قصيدة رثاء جيدة في أستاذه حماد ، فلما سمعها أعجب بها ، وقال له : الآن أصبحت شاعرا ، فقال له أبو نواس : مت يا سيدي ولك عندي قصيدة خير منها !!!!

وهذه الرواية تطلعنا على أن ما نقول إنما هو من مخزون خبراتنا في اللاشعور وما قمنا بتخزينه ، فقط نجتره ونضفي عليه من خبراتنا ، وما طلب حماد الراوية من أبي نواس حفظ هذا العدد من الأراجيز إلا

لثقته في أن ما نقول ما هو إلا معاد أو مكرور بطريقة ما ، كما أن هذه القصة تطلعنا على حقائق عدة أبرزها :

١- أن ما يكتبه الشاعر أو الأديب نتاج قراءات وثقافات مختزنة ساهم فيها نصوص أخرى خارج حدود النص الشعري أو النثري .

٢- أن ما يظنه الشاعر أو الأديب شيئا جديدا أمر غير دقيق ، فهو إما محاكاة عن طريق المخالفة أو المعارضة أو تأثر أو صدى لفكرة أو تركيب سبق أن كتب أو قيل من قبل ، ثم صدر عن الشاعر واعيا أو غير واع.

٣- تبرز آلية التناص واضحة ملموسة من خلال مفهوم الاستدعاء لمخزون معين من خبرات وثقافة الشاعر ، أو تحويل لنص ما يتفق ورؤية الشاعر .

٤- الشاعر أو المبدع عملة ذات وجهين ، فهو يرفد غيره ويمده بما يكتب ويأخذ منهم قاصدا أو بدون قصد ، بوعي أو بدون وعي منه .

والشاعر أو الأديب في ظل ذلك كله لا يفكر بمعزل عن خبراته وقراءاته ولا يبدأ من نقطة الصفر ، إنما يمر بالحالين : يأخذ ويعطي ، فما النص الأدبي إلا عدة نصوص مهضومة تفاعل معها الشاعر ، وأضفى عليها من ذاته وخبراته ، وهذا هو الذي جعل القدماء يسمونه

بالسرقة أ وقوع الحافر على الحافر كما يقولون ، وفي هذا الصدد يقول الدكتور (خليل موسى) : " إن التناص تشكيل نصي جديد من نصوص سابقة أو معاصرة تشكيلا وظيفيا بحيث يغدو النص المتناص خلاصة لعدد من النصوص ، ويقوم التناص بعمليات إجرائية مختلفة كالاستدعاء القصدي أو غير القصدي والتغايري أو التوافقي أو الامتصاص الإسفنجي الموظف والتداخل ، والتحويل ، وهو أهم عمليات التناص والاندماج " .

حقيقة المصطلح

التّناصّ ، يرادفه (التفاعل النصّي)، و (المتعالقات النصّية) وكانت بداية ظهور (التّناصّ) على يد (جوليا كريستيفا). ثم احتضنته البنيوية الفرنسية، وما بعدها من اتجاهات سيميائية، وتفكيكية، في كتابات رولان بارت، وتودوروف، وغيرهم من رواد الحداثة النقدية، ويؤكد تودوروف في كتابه (الشعرية) أن الفضل في هذه الظاهرة التعبيرية يعود إلى الشكلانيين الروس، يقول شيكلوفسكي: "إن العمل الفني يُدرك في علاقته بالأعمال الأخرى، وبالاستناد إلى الترابطات التي نقيمها فيما بينها، وليس النصّ المعارض وحده الذي يبدع في توازٍ وتقابل مع نموذج معين، بل إن كل عمل فني يبدع على هذا النحو" ذلك أن المبدع ينشأ في عالم مليء بكلمات الآخرين وأساليبهم ، فيبحث في خضمها عن الكلمات التي يعبر بها عن تجربته ، وفكره ، لن يجد إلا كلمات قد صاغها غيره وسبق إليها. ولهذا فإن تودوروف يسمّي الخطاب الذي لا يستحضر شيئاً مما سبقه: (أحادي القيمة)، ويسمّي الخطاب الذي يعتمد في بنائه على هذا الاستحضار بشكل صريح (خطاب متعدد القيمة) .

ومعنى ذلك أن الأديب أو الشاعر عند تشكيل نصّ جديد يلجأ إلى (التّناصّ) من نصوص سابقة أو معاصرة فيأخذ المدد من فكرتها أو صورها أو تراكيبها ، بحيث يغدو النّص الجديد نتيجة وخلاصة لعدد من النصوص السابقة ، كان دور الأديب فيها إعادة صياغتها بشكل جديد، بحيث لم يبق من النصوص السابقة سوى مادتها في حين يختفي الأصل الذي لا يتوصل إليه ولا يدركه إلا ذوو الخبرة والمران.

ومعنى ذلك أيضا أن (التّناصّ) يقيم علاقة تفاعل بين نصوص سابقة، ونصّ حاضر. أو هو تعالق (دخول في علاقة) نصوص مع نصّ، حدث بكيفيات مختلفة .

والتناص نوعان :

١- **تناصّ داخلي :** يعتمد على (توالد) النصّ و (تناسله)، من خلال : العبارات المفتاحية ، أو الجمل المحورية والتأثر بها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من خلال :

- التضمين .
- الاقتباس .
- الاستشهاد .
- الاحتذاء .

- المعارضة.

أي أنه إعادة إنتاج سابق، في حدود من الحرية.

٢- **تناص خارجي :** يعتمد على حوار بين نصّ ونصوص أخرى متعددة المصادر والوظائف والمستويات، يأخذ الشاعر فكرة، أو عدة أفكار، أو مضامين معينة مما يقع تحت يديه من نصوص.

وقد أدى ظهور المصطلح إلى وجود اختلاف بين المترجمين العرب المعاصرين فيما بينهم حول تعريب مصطلح (التناصّ) Intertextulite، فظهرت له المسميات التالية:

- أطلق عليه : تداخل النصوص
- وأطلق عليه : التناصية
- وأطلق عليه النصوصية
- وأطلق عليه التناص

وهذا المصطلح الأخير (التناصّ) هو الذي شاع في الحقل البلاغي وصار يطلق على كل نص فيه تضمين، أو تلميح، أو إشارة، أو اقتباس...الخ.

والأمر الذي لا شك فيه أن النقاد العرب القدماء تنبهوا إلى ظاهرة (تداخل النصوص) أو (التفاعل النصّي)، وأشاروا إليه في مجالسهم، وفي ما روي عن الشعراء، وفي ما كان يطلق من أحكام نقدية، ولكن تحت مسميات بلاغية مثل: التضمين، والاستشهاد، والاقتباس ومن النقاد من أدخله في السرقات.

الفصل الثاني :

التناص في التراث القديم

حفلت كتب التراث العربي القديم بالإشارة إلى تقليد الشعراء بعضهم بعضا أو أخذ شاعر من آخر، وسموا ذلك مسميات كثيرة فمنهم من سماه : الأخذ، ومنهم من سماه : الإغارة، ومنهم من سماه السلخ، ومنهم من سماه : السلب، ولكن لم يرد ذكر مسمى (التناص)لكن الثابت أنهم تنبهوا إلى ظاهرة (تداخل النصوص) أو (التفاعل النصّي)، وبخاصة في الشعر، وأشاروا إليه في نظراتهم النقدية لمجموعة من النصوص في شكل ملحوظات سريعة تفتقد إلى الأناة والتعليل المقنع ويمكن القول إن الإشارة إلى (التّناصّ) في النقد العربي القديم وجدت في بطون كتب البلاغة، والنقد الأدبي .

وفيما يلي نستعرض موقف نقاد وشيوخ العرب من (التناص)، وبداية نعترف أن المصطلح ورد عندهم جميعا تحت مسمى السرقة فلننظر ماذا قالوا؟

ابن رشيق :

كان من أبرز النقاد القدامى الذين تناولوا ظاهرة السرقة واستفاضوا فيها وعددوا نماذجها ، وقد بدأ حديثه عنها قائلا " وهذا باب متسع جدا، لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه، وفيه

أشياء غامضة إلا على البصير الحاذق بالصناعة، وأخرى فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل"

ومع اعترافه باتساع هذا المفهوم وعدم خفائه على الناس إلا أننا نقرر في البداية أن العمل الأدبي – أى عمل – لا ينبني ولا تشيد معماريته من فراغ ،

لذا نرى شيخنا ابن رشيق القيرواني يشير إلى ذلك في قوله :

" والشاعر يورد لفظا لمعنى فيفتح به لصاحبه معنى سواه لولاه لم ينفتح "

وفي قوله : " وقد علمنا أن الكلام من الكلام مأخوذ وبه متعلق "

وهذا اعتراف ينم عن وعي نقدي كبير، وبإدراك تام لدور التأثير والتأثر في تأسيس العمل الإبداعي، وما يحمل من أشكال تختلف من مبدع للآخر.

وإذا كان من حق المبدع أن يتأثر بغيره ، فلا يعد ذلك إذنا له بالأخذ الكامل إنما عليه الاعتدال فيما يأخذ ، وإلا فأين إبداعه ؟، وأن خصوصيته وتفرده عن غيره ؟ ، وقد أشار ابن رشيق إلى ذلك في قوله :

"واتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز، وتركه كل معنى سبق إليه جهل. ولكن المختار له عندي أواسط الحالات".

وتبعا لذلك فعلى الناقد أن يتنبه إلى ما يجوز الأخذ منه وما لا يجوز. وهو في هذا التصريح يتفق مع القاضي عبد العزيز الجرجاني (ت. ٣٩٢هـ)، إذ يعتبره أصح مذهبا وأكثر تحقيقا في الموضوع حين قال: " ولست تعد من جهابذة الكلام، ولا من نقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه، وتحيط علما برتبه ومنازله، فتفصل بين السرق الغصب والإغارة والاختلاس. وتعرف الإلمام من الملاحظة وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز إدعاء السرقة فيه والمبتذل الذي ليس واحد أحق به من الآخر وبين المختص الذي حازه المبتدئ فملكه واجتباه السابق فاقتطعه".

مفهوم السرقة عند ابن رشيق :

يتحدث ناقلا عن شيوخه : " قالوا السرق في الشعر ما نقل معناه دون لفظه، وأبعد في أخذه، على أن من الناس من بعد ذهنه إلا عن مثل بيت امرئ القيس وطرفة حين لم يختلفا إلا في القافية، فقال أحدهما "وتحمل" وقال الآخر " وتجلد" ومنهم من يحتاج إلى دليل من اللفظ مع المعنى، ويكون الغامض بمنزلة الظاهر وهم قليل.

والسرق أيضا إنما هو في البديع المخترع الذي يختص به شاعر، لا في المعاني المشتركة التي هي جارية في عاداتهم ومستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم، مما ترتفع المظنة فيه عن الذي يورده أن يقال أنه أخذه من غيره" .

ويتضح لنا من هذا الاعتراف أن ،

- مفهوم السرقة ورد تحت مسمى (النقل) .
- السرقة تكون في المعاني لا الألفاظ .
- والسرقة تكون في البديع المخترع الذي يأتي به الشاعر .

أنواع السرقات :

ويتناول كتاب العمدة بعد ذلك أنواع السرقة،أو كما أطلق عليها (النقل) ، ويجعل منها :

- الاصطراف : وما يتضمن من : الاجتلاب ، والاستلحاق ، والانتحال ، والإغارة ، والغصب ، والمرافدة .

ويستشهد لذلك بأمثلة من شعر من سبقوه ومن شعر معاصريه ، فمن ذلك: ما صنع الفرزدق بجميل وبالشمردل اليربوعي ، إذ أغار على الأول في قوله :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا.

فقال متى كان الملك في بني عذرة؟ إنما هو في مضر وأنا شاعرها، فغلب الفرزدق على البيت، ولم يتركه جميل ولا أسقطه من شعره .

أما مع الشمردل : فقد اغتصب منه قوله:

فما بين من لم يعط سمعا وطاعـة   وبين تمـيم غـير حـز الحلاقـم

ومن الاصطراف. يورد قول زياد الأعجم :

أشم إذا جئـت للعـرف طالبـا   حباك بمـا تحـوي عليـه أناملـه

ولو لم يكن في كفه غـير نفسـه   لجـاد بهـا فليتـق الله سـائله

ويستشهد لمصطلح "الاهتدام"، بقول النجاشي :

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة   ورجل رمـت بهـا يـد الحـدثان

فأخذ كثير القسم الأول واهتدم باقي البيت، فجاء المعنى في غير اللفظ فقال:

ورجل رمى فيها الزمان فشلت

- أما الاختلاس، ويسمى أيضا نقل المعنى، فمثل قول أبي نواس في المدح:

ملك تصور في القلوب مثاله   فكأنه لم يخل منه مكان

اختلسه من قول كثير في الغزل حين قال:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما   تمثل لي ليلى بكل سبيل

ومن السرقة المتعلقة ببنية الكلام: يذكر منها : قول كثير:

تقـــول مرضـــنا فمـــا عـــدتنا وكيف يعـود مـريض مريضـا؟

أخذه نابغة تغلب فقال :

بخلنـا لبخلـك قـد تعلمـين وكيـف يعيـب بخيـل بخيـلا؟

وقد أخرج ابن رشيق (المواردة) ولم يعدها من قبيل السرقة أو الأخذ .

ومعنى (المواردة) أن يتفق الشاعران على معنى واحد و يتفقان في الألفاظ كما حدث بين امرىء القيس القائل :

وقوفا بها صحبي علـي مطـيهم يقولون لا تهلـك أسـى وتجمـل

إذ توارد هذا المعنى لطرفة بن العبد فقال :

وقوفا بها صحبي علـي مطـيهم يقولون لا تهلـك أسـى وتجلـد

يبرر ابن رشيق ما حدث بين الشاعرين بأنه اتفاق من غير قصد، ويرى أن"هذا لا يكون سرقة لأنها تكون فاضحة ولا يكون اتفاقا من غير قصد" وقد قال عمرو بن العلاء حين سئل عن مثل ذلك : " أرأيت الشاعرين يتفقان في المعنى ويتواردان في اللفظ لم يلق واحد منهما صاحبه ولم يسمع شعره؟ فقال : تلك عقول الرجال توافت على

ألسنتها " وهو ما نطلق عليه في عصرنا ، وما يشيع على ألسنة الأدباء (توارد الخواطر) .

كما يرجع ابن رشيق ذلك أيضا إلى " أن الاتفاق بين الشعراء قد يكون بسبب النسيان " ويذكرنا هذا الأمر بما روي عن المتنبي لما سئل عن ما يحدث بين الشعراء من تماثل في اللفظ والمعنى ، وربما لا يعرف أحدهما الآخر ، قال : " الشعر جادة وربما وقع الحافر موضع الحافر"

ثم تحدث عن (**التلفيق أو الالتقاط**)، بمعنى أن يجتمع لدى الشاعر كثير من المعاني فيؤلف بينها ويستخرج منها شيئا جديدا ، ويعد ذلك فطنة من الشاعر ويعلق عليه بقوله " وهو أن يميز الشاعر المعاني المتقاربة ويستخرج منها معنى مولدا يكون له كالاختراع وينظر به جميعها فيكون وحده مقام جماعة من الشعراء. وهو مما يدل على حذق الشاعر وفطنته. ولم أر ذلك أكثر منه في شعر أبى الطيب وأبي العلاء المعري فإنهما بلغا فيه كل غاية ولطفا كل لطف. وكان أبو الطيب أجمع الناس لكثير من المعاني في قليل من اللفظ وبذلك تقدم عند الفضلاء" .

ثم ينتهي إلى أمور عدة أهمها :

- أنه يعترف بما يكون من الشعراء من أخذ وتأثر .

- ويؤمن بما يكون بين الشعراء من توارد خواطر دون قصد .
- ويحكم بالتميز للشاعر الذي يلتقط المعاني الكثير ليستخرج منها معنى جديدا يحسب له .
- ويبين للآخذ ما يفعل حين يأخذ ، فيشير عليه باختصار المعنى إن كان طويلا ، أو يبسطه إن كان مختصرا ، أو يبينه إن كان غامضا .
- وأخيرا يحكم بالسبق والتملك لمن يأخذ المعنى فيزيد فيه ويجيد.

وانظر إليه يبلور النقاط السابقة كلها في قوله :

" والمخترع معروف له فضله، متروك له من درجته، غير أن المتبع إذا تناول معنى فأجاد- بأن يختصره إن كان طويلا، أو يبسطه إن كان كزا، أو يبينه إن كان غامضا، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسفا، أو رشيق الوزن إن كان جافيا - فهو أولى به من مبتدعه، وكذلك قلبه أو صرفه إلى وجه آخر، فأما إذا ساوى المبتدع فله فضيلة حسن الاقتداء لا غيرها. فإن قصر كان دليلا على سوء طبعه وسقوط همته، وضعف قدرته" .

وبعد ، ألا يعد هذا من قبيل التناص الوارد إلينا مع رياح التأثر بالغرب ؟؟ إنني مازلت عند رأيي أن شيوخ العربية وعلماءها ونقادها الأجلاء قد استوعبوا هذه النظريات الوافدة إلينا منذ زمن بعيد

وتحدثوا فيها ، وها هي تعود إلينا واضعة على رأسها قبعة الغرب ورداءه ،حدث هذا بعد أن أغفلنا تراثنا ولم ننقب في كنوزه ، ونستوعب ما فيه من ثروات تجل عن الوصف فنقب فيه الفرنجة واستخرجوا درره .

وعند ابن طباطبا العلوي :

تناول السرقات تحت ما أسماه : المعاني المشتركة ، مبينا أن السبق فيها لمن تلطف في أخذها ، وأحسن كسوتها بما يناسبها من ألفاظ ، فيقول : "وإذا تناول الشاعر المعانيَ التي قد سُبقَ إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب بل وجَبَ له فضل لطفه وإحسانه فيه..... إلى قوله ويحتاج من سلك هذه السبيل إلى إلطاف الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها، وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها، وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها ".

ويشير إلى أن الأخذ يحتاج إلى بصيرة نافذة ، ودراية ، حتى ينتقي للمعاني ما يناسبها من الألفاظ ، فيقول : " ويحتاج من سلك هذه السبيل إلى إلطاف الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وتلبيسها حتى تخفى على نقادها و البصراء بها، وينفرد

بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها، فيستعمل المعاني المأخوذة في غير الجنس الذي تناولها منه ، وإن وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام، أو في الخطب والرسائل فتناوله وجعله شعرا كان أخفى وأحسن" .

ويشير ابن طباطبا إلى السرقات الذكية، التي تعمد إلى المعنى فقط وتستخدم الحيلة في تحويره وكسوته ألفاظا جديدة تبعده عن النظم السابق ، لأن هناك سرقات حرفية اتُّهم بها الشعراء تكون في البيت أو الشطر أو الأبيات في أغلب الأحيان، كما يروى عن سرقة طرفة بن العبد لبيت امرئ القيس بتغيير الروي ، إذ يقول طرفة :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم   يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وهو مأخوذ من قول امرئ القيس:

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم   يقولون لا تهلك أسى وتجمّل

كما يذكر أن من السرقات ما يكون في شكل إغارة، كالفرزدق مثلاً، حين أغار على بيت الشمردل اليربوعي، فقال له الفرزدق (والله لتدعنّه أو لتدعنّ عرضك. فقال: خذه لا بارك الله لك فيه) .

عند حازم القرطاجني :

تناول هو الآخر موضوع الأخذ والسرقات ، وكسابقيه يقسم المعاني التي هي مجال الأخذ إلى أربعة أقسام ، يقول عنها "« مراتب الشعراء فيما يلمون به من المعاني إذن أربعة: اختراع واستحقاق وشركة وسرقة. فالاختراع هو الغاية في الاستحسان، والاستحقاق تال له، والشركة منها ما يساوي الأخير فيه الأول فهذا لا عيب فيه، ومنها ما ينحط فيه الآخر عن الأول فهذا معيب والسرقة كلها معيبة وإن كان بعضها أشد قبحا من بعض".

عند الجرجاني:

لا ينكر باحث ولا متخصص ما كتبه القاضي الجرجاني في قضية السرقة ، وليس أدل على ذلك من كتابه المعروف (الوساطة بين المتنبي وخصومه) ، فقد تناول السرق وتعرض له بالحديث ليميط اللثام عن معناه ، وأنواعه ، ويدلل بنماذج متعددة له ، وهي كما يقول :

" وهذا باب لا ينهض به إلا الناقد البصير والعالم المبرز "

ويبين أنها - السرقة - موضوع شائك لا يقدر على الخوض في الحديث عنه وتناوله إلا الخبير به ، البصير بخباياه ، يقول :"ولست تعد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه وتحيط

علما برتبه ومنازله فتفصل بين السرق والغصب وبين الإغارة والاختلاس".

- وقد ادخلها الجرجاني تحت مسمى (المعاني المشتركة) والمتداولة مبينا أن هناك أمورا يشترك فيها الناس جميعا ، فلا يصح أن يسمى من يتناولها سارقا ، يقول صاحب الوساطة "فمتى نظرت فرأيت أن تشبيه الحسن بالشمس والبدر والجواد بالغيث والبحر... أمور متقررة في النفوس متصورة للعقول، يشترك فيها الناطق والأبكم والفصيح والأعجم والشاعر والمفحم، حكمت بأن السرقة عنها منتفية والأخذ بالاتباع مستحيل ممتنع وفصلت بين ما يشبه هذا ويباينه وما يلحق به وما يتميز عنه ثم اعتبره ما يصح فه الاختراع والابتداع ، فوجدت منه مستفيضا متداولا متناقلا لا يعد في عصرنا مسروقا ولا يحسب مأخوذا ، وإن كان الأصل فيه لمن انفرد به وأوله للذي سبق إليه كتشبيه الطلل المحيل بالخط الدارس .

ويعتبر من يفعل ذلك أنه من قبيل توارد الأفكار ، أو وقوع الحافر على الحافر كما يقال ، والمزية والحسن فيه لمن يحسن التصرف في المعنى ، ويلبسه ما يليق به ويسمو به من ألفاظ.

وهو إذ يعترف بذلك يبرز دور الطبع والدربة والعلم بقول الشعر الذي يتجلى في قدرة الشاعر على أن يريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أو ترتيب يستحسن.

وهذا ما سماه صاحب الوساطة"**التفاضل في الشعر المتداول**".

ويدلل على ذلك بأمثلة كثيرة في ثنايا الكتاب .

- ثم يتحدث عما أسماه (**السرقة المذمومة**) وهي عنده تعني : تغيير اللفظ ، وإبقاء المعنى كما هو ، ويقرر أن المعنى بهذا الشكل سرقة مذمومة ، ويمثل لذلك بمثال مضمونه أن عبد الله بن الزبير دخل على معاوية فأنشد لنفسه:

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدتــه على طرف الهجران إن كان يعقل
ويركب حد السيف من أن تضيمه إذا لم يكن عن شفرة السيف يزحل

فقال له معاوية لقد شعرت بعدي يا أبا بكر، ولم يفارق عبد الله المجلس حتى دخل معن ابن أوس المزني فأنشده كلمته التي أولها:

لعمرك مــا أدري وإني لأوجــل علــى أينــا تعــدو المنيــة أول

حتى أتى عليها وهذه الأبيات منها، فأقبل معاوية على عبد الله فقال له : ألم تخبرني أنها لك؟ فقال: المعنى لي واللفظ له.

وبعد فهو أخي من الرضاع وأنا أحق الناس بشعره.

ويتحدث أيضا عما أسماه (**السـرقة القبيحـة**) ، ويمثل لها بقول أبي تمام :

وما سـافرت في الآفـاق إلا ومـن جـدواك راحلـتي وزادي

أخذ المتنبي المعنى وصاغه قائلا :

محبـك حيثمـا اتجهـت ركـابي وضيفك حيث كنت من الـبلاد

يعلق صاحب الوساطة بقوله : " وهذا من أقبح ما يكون في السرق لأنه يدل على نفسه باتفاق المعنى والوزن والقافية ".

- ويمثل لسرقة **(الأغراض)** بقول لبيد :

وما المـال والأهلـون إلا ودائـع ولا بـد يومـا أن تـرد الودائـع

أخذ الأفوه الأودي الغرض وصاغه قائلا:

إنمـا نعمـة قـوم متعـة وحيـاة المـرء ثـوب مسـتعار

كلا الشاعرين تناول الغرض نفسه ، غير أن الشاعر لبيد جعل المال والأهل وديعة بينما جعلها الأفوه عارية مردودة .

وفي الإطار نفسه يقدم للآخذ إرشادات يطلب منه العمل بها لإخفاء ما يتناول من معنى ، فيقول :

" فإن الشاعر الحاذق إذا علق المعنى المختلس عدل به عن نوعه وصنفه وعن وزنه ونظمه وعن رويّه وقافيته ، فإذا مر بالغبي المغفل وجدهما أجنبيين وإذا تأملهما الفطن الذكي عرف قرابة ما بينهما والوصلة التي تجمعهما ".

ويمثل لذلك بقول كثير عزة:

أريد لأنسي ذكرها فكأنما ... تمثل لي ليلى بكل سبيل

وقال أبو نواس:

ملك تصور في القلوب مثاله ... فكأنه لم يخل منه مكان

يقول : فلم يشك عالم في أن أحدهما أخذ من الآخر وإن كان الأول نسيبا والثاني مديحا.

- كما يتحدث عما أسماه (**السرقة اللطيفة**) ويقول عنها :

"ومن لطيف السرق ما جاء به على وجه القلب وقصد به، النقص كقول المتنبي:

أأحبه وأحب فيه ملامة؟ ... إن الملامة فيه من أعدائه

إنما نقض قول أبي الشيص:

أجد الملامة في هواك لذيذة ... حبا لذكرك فليلمني اللوم.

وخلاصة الأمر أن الجرجاني تعرض للتناص تحت مسمى (السرقة) وضمن دعوته الحديث عن :

- المباح من السرقة ، وقصد به (المعاني المشتركة) .
- السرقة المذمومة .
- السرقة القبيحة .
- السرقة اللطيفة .
- سرقة الأغراض .

ويلخص القاضي الجرجاني دعوته مشيرا إلى أن الأخذ يمكن إخفاءه بطرائق منها : النقل ، والقلب ، والترتيب ، وحسن التصرف فيقول :"وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته ويعتمد على لفظه ومعناه وكان أكثره ظاهرا كالتوارد وإن تجاوز ذلك قليلا في الغموض لم يكن فيه غير اختلاف الألفاظ ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب وتغيير المنهاج والترتيب وتكلفوا جبر ما فيه من النقيصة بالزيادة والتأكيد والتعريض في حال والتصريح في أخرى والاحتجاج والتعليل فصار أمدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما لا يقصر معه عن اختراعه وإبداع مثله ".

ضياء الدين ابن الأثير في المثل السائر:

وكان ابن الأثير ممن تحدثوا عن السرقات ، فأفرد لها بابا فصل فيه القول ، ويبين أنواع السرقة ، يعترف فيه بوجودها ، ويبين أن الشاعر يأخذ من غيره قاصدا أو غير قاصد لأن هذا أمر طبيعي ، " وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه ليس لقائل أن يقول إن لأحد المتأخرين معنى مبتدعا ن فإن قول الشعر قديم منذ نطق باللغة العربية ، وأنه لم يبق معنى من المعاني إلا وقد طرق مرارا " (٤٦٧)

ويقول إن العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يعن لها من الحاجيات ، ولم يزل الحال على هذه الصورة إلى عهد امرىء القيس وهو قبل الإسلام بمائة سنة زائدا أو ناقصا فقصّد القصائد وهو أول من قصّد .

ثم يتحدث عن المعاني المشتركة التي تداولها الناس ' حتى لم تعد ملكا لأحد ولا يجوز لمن يستخدمها أن يوسم بالسرقة " فقولهم في المديح إن عطاءك كالبحر وكالسحاب ...وكقولهم في المراثي: إن هذا الرزء أول حادث ...تتوارد عليها الخواطر من غير كلفة ، وتستوي في إيرادها، ومثل ذلك لا يطلق عليه اسم السرقة، وغنما يطلق اسم السرقة على معنى مخصوص " (٤٦٨)

وفي الفصل الذي عقده للسرقة ، يقسمها إلى الأقسام التالية :

- النسخ ، ويقصد به (أخذ اللفظ والمعنى برمته)
- السلخ ، ويقصد به (أخذ بعض المعنى)
- المسخ ، ويقصد به (إحالة المعنى إلى ما دونه) ، يقول " وكنت ألفت فيه (السرق) كتاباوقسمته ثلاثة أقسام : نسخا ، وسلخا ، ومسخا ، أما النسخ فهو أخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة عليه ، مأخوذ ذلك من
- نسخ الكتاب ، وأما السلخ فهو أخذ بعض المعنى ، (وهو) مأخوذ من سلخ الجلد الذي هو بعض الجسم المسلوخ ، وأما المسخ فهو إحالة المعنى إلى ما دونه ، (وهو) مأخوذ من مسخ الآدميين قردة " (٤٦٩)

ويورد نماذج لكل نوع من أنواع السرقة التي ذكرها ، فمن النسخ يورد قول ابن الخياط :

أغار إذا أنست في الحي أنة   حذارا عليه أن تكون لحيه

ويقول : إنه مأخوذ من قول المتنبي :

لو قلت للدنف المشوق فديته   مما به لأغرته بفدائه

ويعلق ابن الأثير قائلا : " قول المتنبي أدق معنى ، وإن كان ابن الخياط أرق لفظا " (٤٦٩) ، ومن ذلك قول عمارة اليمني :

فهل درى البيت أني بعد فرقته ما سرت من حرم إلا إلى حرم

وهو مأخوذ من قول أبي تمام :

يامن رأى حرما يسري إلى حرم طوبى لمستلم يأتي وملتزم

ويقول عن النسخ " أما النسخ فإنه لا يكون إلا في أخذ المعنى واللفظ جميعا أو في أخذ المعنى وأكثر اللفظ لأنه مأخوذ من نسخ الكتاب " ويورد منه ضرب شبهه بوقوع الحافر على الحافر كقول امرىء القيس :

وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وكقول طرفة بن العبد :

وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

ومنه قول الفرزدق :

أتعدل أحسابا لئاما حماتها بأحسابنا إني إلى الله راجع

وقول جرير :

أتعدل أحسابا كراما حماتها بأحسابكم إني إلى الله راجع؟

ومع اعتراف ابن الأثير بوقوع الحافر على الحافر نراه يرفض مقولة " إن الفرزدق وجريرا كانا ينطقان في بعض الأحوال عن ضمير واحد " معللا رفضه أن العقل والمنطق يجيز اتفاق شاعرين في المعنى الواحد لكنه لا يجيز اتفاقهما في الألفاظ نفسها " فإذا رأينا شاعرا متقدم الزمان قد قال قولا ثم سمعناه من شاعر أتى من بعده علمنا بشهادة الحال أنه أخذه منه ، وهب ان الخواطر تتفق في استخراج المعاني الظاهرة المتداولة فكيف تتفق الألسنة أيضا في صوغ الألفاظ"(٤٧٣)

ثم يتحدث عن السلخ ، ويورد له نموذجا يقول عنه (هو من أدق السرقات مذهبا ، وأحسنها صورة ، ولا يأتي إلا قليلا ، فمن ذلك قول بعض شعراء الحماسة :

لقد زادني حبا لنفسي أنني بغيض إلى كل امرىء غير طائل

أخذ المتنبي هذا المعنى واستخرج منه معنى آخر غيره إلا أنه شبيه به فقال :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

ويعلل سبب دقة الأخذ هنا بأنه لا يجيده إلا الحاذق الفهم الذي أوتي القدرة وحسن التصرف "وهو غير متبين إلا لمن أعرق في ممارسة الأشعار وغاص في استخراج المعاني ".

ويعدد صاحب المثل السائر من السلخ أنواعا منها :

- أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ .
- أو يؤخذ المعنى فيعكس ، ويقول عنه (وذلك حسن يكاد يخرجه من السرقة) .
- أو يؤخذ بعض المعنى .
- أو يؤخذ المعنى ويزاد عليه معنى آخر .
- أو يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من العبارة الأولى ، وهذا هو المحمود الذي يخرجه من باب السرقة ، ومنه قول أبي نواس:

يدل على ما في الضمير من الفتى   تقلب عينيه إلى شخص من يهوى

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال :

وإذا خامر الهوى قلب صب   فعليه لكل عين دليل

- أو أن يؤخذ المعنى ويسبك سبكا موجزا ويراه ابن الأثير (من أحسن السرقات) ويبين سبب ذلك ما فيه من الدلالة على

بسطة الناظم في القول وسعة باعه في البلاغة ، فمن ذلك قول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

أخذه سلم الخاسر – وكان تلميذه – فقال :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

- أو أن يكون المعنى عاما فيجعل خاصا ، أو خاصا فيجعل عاما " وهو من السرقات التي يسامح صاحبها " كما يرى صاحب المثل ، فمن ذلك قول الأخطل :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

أخذه أبو تمام فقال :

أألوم من بخلت يداه واغتدي للبخل تربا؟ ساء ذاك صنيعا

- إيجاد الطريق واختلاف المقصد ومثاله أن يسلك الشاعران طريقا واحدة ، فتخرج بهما إلى موردين أو روضتين ، وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر .

ثم ينتقل المصنف إلى النوع الثالث والأخير – وفق تقسيمه – وهو المسخ " وأما المسخ : فهو قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة " ويستشهد لذلك بقول أبي تمام :



فتى لا يرى أن الفريضة مقتل ولكن يرى أن العيوب مقاتل

وقول أبي الطيب المتنبي :

يرى أن ما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

الشاعر هنا جعل الصورة الحسنة قبيحة " فهو وإن لم يشوه المعنى فقد شوه الصورة " .

- ومن المسخ قلب الصورة القبيحة إلى حسنة ، ويرى آن " هذا لا يسمى سرقة ، بل يسمى إصلاحا وتهذيبا "ومن ذلك قول المتنبي:

لو كان ما تعطيهم من قبل آن تعطيهم لم يعرفوا التأميلا

أخذه ابن نباتة السعدي فأحسن نظمه قائلا :

لم يبق جودك لي شيئا أؤمله تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

ويقول الشماخ :

إذا بلغتني وحملت رحلي عرابة فاسر لي بدم الوتين

أخذه أبو نواس فقال :

وإذا المطي بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام

وبعد ..... فمن خلال ما أوردنا من آراء وما ناقشنا من نماذج لمصطلح التناص عند القدماء تبين أنه تم تناوله تحت مسمى السرقة ، ومن خلال ذلك كله يمكننا أن نبين ما يلي :

- ارتبط مصطلح السرقة عند النقاد العرب القدامى بقيمة أخلاقية،حيث كانوا يعدونها عيبا وضعفا من الشاعر أو الأديب، كما ارتبط بقيمة فنية تتمثل في طريقة الأخذ والتأثر.
- السرقة شكل من الأشكال التي يتضمنها هذا المصطلح الحديث مصطلح التناص ، وليست مرادفا له ، فهو أي(المصطلح) أعم وهي أي(السرقة) أخص .
- اختلف القدماء فيما بينهم حول موضع السرقة ، فمنهم من؟ جعلها في اللفظ ، ومنهم من جعلها المعنى .
- أمر طبيعي أن يظهر التناص كمصطلح له تقنياته الفنية ، نتيجة لتطور الدراسات النقدية ، وظهور الألسنيات ، فضلا عن اتساع دائرة لاتصال بالغرب ، وما صحب ذلك من تأثير وتأثر.
- تناول كثير من النقاد والمختصين مصطلح التناص في مؤلفاتهم ، وفرعوا أنواعه وعددوا طرائقه ، ولم يتفقوا فيما بينهم على أنواع محددة بعينها ، وذلك راجع إلى اختلاف الثقافات والتوجهات ، وهذا أمر طبيعي لازدياد الصلة والتواصل بين الأدباء والشعراء في الشرق والغرب ، ولتعدد الكتابات في الألسنيات وفي مدارس النقد ومناهج البحث .

الفصل الثالث :

أنواع التناص

للتناص أنواع منها :

١- النقائض:

جمع نقيضة ، وهي القصائد التي تجمع في أبياتها بين الفخر والهجاء ، وقد حملت لنا كتب التراث ومصادره كثيرا من النقائض للفرزدق وجرير ومن هذه النقائض :

يقول الفرزدق :

إنّ الـذي سَـمَكَ السّـماءَ بَـنى لَنَـا

بَيْتـاً، دَعَائِمُـهُ أعَـزُّ وَأطْـوَلُ

بَيْتاً بَنَـاهُ لَنَـا المَلِيـكُ، ومَـا بَـنى

حَكَـمُ السّـمَاءِ، فإنّـهُ لا يُنْقَـلُ

بَيْتـاً زُرَارَةُ مُحْتَـبٍ بِفِنَائِـهِ،

وَمُجاشِـعٌ وَأبُـو الفَـوَارِسِ نَهْشَـلُ

يَلِجُونَ بَيـتَ مُجاشـعٍ، وَإذا احتبـوْا

بَـرَزُوا كَـأنّهُمُ الجِبَـالُ المُثَّـلُ

لا يَحْـتَبي بِفِنَـاءِ بَيْتِـكَ مِـثْلُهُمْ

أبـداً، إذا عُـدّ الفَعَـالُ الأفْضَـلُ

ضَرَبتْ عَليـكَ العنكَبـوتُ بنَسْـجِها،

وَقَضَـى عَلَيـكَ بـهِ الكِتَـابُ المُنْـزَلُ

أيـنَ الّـذِينَ بِهـمْ تُسَـامي دارمـاً،

أمْ مَـنّ إلى سَـلَفَيْ طُهَيّـة تَجعَـلُ

يَمْشُونَ في حَلَقِ الحَديدِ كمـا مَشـتْ

جُرْبُ الجِمـالِ بِهـا الكُحَيـلُ المُشـعَلُ

وَالمـانِعُونَ، إذا النّسـاءُ تَرَادَفَـتْ،

حَـذَرَ السِّـبَاءِ جِمَالُهَـا لا تُرْحَـلُ

يَحمي، إذا اختُرِطَ السّـيوفُ، نِسـاءنا

ضَـرْبٌ تَخِـرّ لَـهُ السّـوَاعِدُ أرْعَـلُ

******

وإذا بَـذَخْتُ وَرَايَـتي يَمْشِـي بِهَـا

سُـفيانُ أو عُـدُسُ الفَعـالِ وَجَنـدَلُ

الأكْثَـروُنَ إذا يُعَـدّ حَصَـاهُمُ،

والأكْرَمُـونَ إذا يُعَـدّ الأوّلُ

وَزَحَلْتَ عَن عَتَبِ الطّرِيـقِ، وَلَم تجِـدْ

قَـدَماكَ حَيـثُ تَقُـومُ، سُـدَّ المَنقَـلُ

إنّ الزّحَـامَ لغَيرِكُـمْ، فَتَحَيّنُـوا

وِرْدَ العَشِـيّ، إلَيْـهِ يَخْلُـو المَنـهَلُ

حُلَــلُ المُلُــوكِ لِبَاسُــنَا في أهْلِنَــا،

وَالسّــابِغَاتِ إلى الــوَغَى نَتَسَــرْبَلُ

أحْلامُنَــا تَــزِنُ الجِبَــالَ رَزَانَــةً،

وَتَخَالُنَــا جِنّــاً، إذا مَــا نَجْهَــلُ

فــادْفَعْ بكَفّــكَ، إنْ أرَدْتَ بِنَاءنــا،

ثَهْــلانَ ذا الهَضَــباتِ هــل يَتَحَلحــلُ

وأنَــا ابــنُ حَنظَلَــةَ الأغَــرُّ، وَإنّــني

في آلِ ضَــبّةَ، لَلْمُعَــمُّ المُخْــوَلُ

فَرْعــانِ قَــدْ بَلَــغَ السّــماءَ ذُراهُمــا؛

وَإلَيهِمــا مِــنْ كــلّ خَــوْفٍ يُعْقَــلُ

ويقول :

فَلَــئِنْ فَخَــرْتُ بِهــمْ لِمثْــلِ قَــدِيمِهِم

أعْلُــوا الحُــزُونَ بِــهِ وَلا أتَسَــهّلُ

زَيْــدُ الفَــوارِسِ وَابــنُ زَيْــدٍ منــهُمُ،

وأبُــو قَبِيصَــةَ وَالــرّئِيسُ الأوّلُ

أوْصَى عَشِــيّةَ حِــينَ فَــارَقَ رَهْطَــه،

عنــدَ الشّــهادَةِ وَالصّــحِيفَةِ، دَغفَــلُ

إنّ ابـــنَ ضَـــبّةَ كـــانَ خَـــيراً وَالِـــداً،
وَأتَـــمُّ في حَسَـــبِ الكهـــرَامِ وأفضَـــلُ
مِمّـــنْ يَكُـــونُ بَنُـــو كُلَيْـــبٍ رَهْطَـــهُ،
أوْ مَـــنْ يَكُـــونُ إلَـــيْهِمُ يَتَخَـــوّلُ
وَهُـــمُ الـــذِينَ عَلَـــوْا عَمَـــارَةَ ضَـــرْبَةً
فَوْهَـــاءَ، فَـــوْقَ شُـــؤونِهِ لا تُوصَـــلُ
وَهُـــمُ، إذا اقتَسَـــمَ الأكـــابِرُ، رَدَّهُـــمْ
وَافٍ لِضَـــبّةَ، وَالرّكَـــابُ تُشَـــلّلُ
جَـــارٌ، إذا غَـــدَرَ اللّئَـــامُ، وَفَـــى بِـــهِ
حَسَـــبٌ، وَدَعْـــوَةُ مَاجِـــدٍ لا يُخـــذَلُ
وَعَشِـــيّةَ الجَمَـــلِ المُجَلَّـــلِ ضَـــارَبُوا
ضَـــرْباً شُـــؤونَ فَرَاشِـــهِ تَتَزَيّـــلُ

*****

يـــا ابـــنَ المَرَاغَـــةِ! أيْـــنَ خَالُـــكَ؟
إنّني خالي حُبيشٌ ذو الفَعـــالِ الأفضَـــلُ
خالي الذي غَصَبَ المُلُـــوكَ نُفُوسَـــهمْ،
وإلَيْـــهِ كَـــانَ حِبَـــاءُ جَفْنَـــةَ يُنْقَـــلُ

إنّــا لَنضــربُ رَأسَ كُــلِّ قَبيلَــةٍ،
وأَبُــوكَ خَلْــفَ أَتَانِــهِ يَتَقَمّـــلُ
وَشُغِلتَ عن حَسبِ الكِرَامِ وَما بَنَــوا؛
إنّ اللّئــيمَ عَــنِ المَكَــارِمِ يُشْــغَلُ
إنّ الّــتي فُقِئَــتْ بِهَــا أبْصَــارُكُمْ،
وَهــيَ الــتي دَمَغَــتْ أبــاكَ، الفَيصَــلُ
وَهَبَ القَصَائدَ لي النّوابــغُ، إذْ مَضَــوْا،
وَأَبُــو يَزِيــدَ وَذو القُــرُوحِ وَجَــرْوَلُ
وَالفَحْــلُ عَلقَمَــةُ الــذي كانَــتْ لَــهُ
حُلَــلُ المُلُــوكِ كَلامُــهُ لا يُنحَــلُ
وَأخــو بَــني قَــيْسٍ، وَهُــنّ قَتَلْنَــهُ،
وَمُهَلْهِــــلُ الشّــــعَرَاءِ ذاكَ الأوّلُ
وَالأعْشَــيانِ، كِلاهُمَــا، وَمُــرَقِّشٌ،
وَأخُــو قُضَــاعَةَ قَوْلُــهُ يُتَمَثّــلُ
وَأخُــو بَــني أسَــدٍ عَبِيــدٌ، إذْ مَضَــى،
وَأَبُــو دُؤادٍ قَوْلُــهُ يُتَنَحّــلُ
وَابْنَــا أبي سُــلْمَى زُهَيْــرٌ وَابْنُــهُ،
وَابــنُ الفُرَيعَــةِ حِــينَ جَــدّ المِقْــوَلُ

وَالجَعْفَرِيُّ، وَكَانَ بِشْرٌ قَبْلَهُ،
لِي مِن قَصائِدِهِ الكِتابُ المُجمَلُ

وَلَقَدْ وَرِثْتُ لآلِ أوْسٍ مَنْطِقاً،
كَالسّمّ خالَطَ جانِبَيْهِ الحَنْظَلُ

وَالحارِثيُّ، أخُو الحِمَاسِ، وَرِثْتُهُ
صَدْعاً، كما صَدَعَ الصَّفاةَ المِعْوَلُ

دَفَعُوا إليّ كِتابَهُنّ وَصِيّةً،
فَوَرِثْتُهُنّ كَأنّهُنّ الجَنْدَلُ

ويقول :

إنّ استرَاقَكَ يا جَرِيرُ قَصَائِدِي،
مِثْلُ ادِّعَاءِ سِوَى أبِيكَ تَنَقُّلُ

وابنُ المَرَاغَةِ يَدَّعي مِنْ دارِمٍ،
وَالعَبْدُ غَيرَ أبِيه قَدْ يَتَنَحّلُ

لَيْسَ الكِرامُ بناحِليكَ أبَاهُمُ،
حتى تُرَدّ إلى عَطيّةَ تُعْتَلُ

وَزَعَمْتَ أنّكَ قَدْ رَضِيتَ بما بَنى،
فَاصْبِرْ فما لكَ، عَن أبِيكَ، مُحَوَّلُ



وَلَئِنْ رَغِبتَ سوى أبيكَ لتَرْجِعَنْ

عَبْداً إلَيْهِ، كَأنّ أنفكَ دُمَّلُ

أزْرَى بجَرْيكَ أنّ أُمّكَ لَمْ تَكُنْ

إلاّ اللّئِيمَ مِنَ الفُحْولَةِ تُفحَلُ

قَبحَ الإلَهُ مَقَرّةً في بَطْنِهَا،

مِنْهَا خَرَجْتَ وَكُنتَ فيها تُحمَلُ

وإذا بَكَيْتَ على أُمَامَةَ، فاستَمعْ

قَوْلاً يَعُمّ، وَتَارَةً يُتَنَخّلُ

ويقول :

أسألْتَني عنْ حُبْوَتي ما بَالُها،

فاسألْ إلى خَبَري وَعَمّا تَسْألُ

فاللّؤمُ يَمْنَعُ مِنكُمُ أنْ تَحْتَبُوا؛

والعِزُّ يَمْنَعُ حُبْوَتي لا تُحْلَلُ

والله أثْبَتَهَا، وَعِزٌّ لَمْ يَزَلْ

مُقْعَنْسِساً، وَأبِيكَ، مَا يَتَحَوّلُ

جَبَلي أعَزُّ، إذا الحُرُوبُ تكَشّفَتْ،

مِمّا بَنى لَكَ وَالِداكَ وَأفْضَلُ

هَــلاّ سَــأَلْتَ بَــنِي غُدانَــةَ مَــا رَأَوْا،

حَيْــثُ الأَتَــانُ إلى عُمُــودِكَ تُرْحَــلُ

كَسَــرَتْ ثَنِيّتَــكَ الأَتَــانُ، فَشَــاهِدٌ

مِنْهــا بِفِيــكَ مُبَــيَّنٌ مُســتَقْبَلُ

ويقول جرير متناصا مع نقيضة الفرزدق :

أعــددت للشــعراء سمــاً ناقعــاً

فســقيت آخــرهم بكــأس الأول

لما وضــعت علــى الفــرزدق ميســمي

وضغا البعيث جدعت أنــف الأخطــل

أخزى الــذي سمــك السـماء مجاشـعا

وبــنى بنــاءك في الحضــيض الأســفل

ولقــد بنيــت أخــس بيــت يــتنى

فهــدمت بيــتكم بمثلــي يــذبل

إني بــــنى لي في المكــــارم أولي

ونفخــت كــيرك في الزمــان الأول

إني انصــببت مــن الســماء علــيكم

حتى اختطفتك يــا فــرزدق مــن علَ



أحلامنـــا تـــزن الجبـــال رزانـــة

ويفـــوق جاهلنـــا فعـــال الجهـــل

فـــارجع إلى حكمـــي قـــريش إنهـــم

أهـــل النبـــوة والكتـــاب المـــترل

كـــان الفـــرزدق إذ يعـــوذ بخالـــه

مثـــل الـــذليل يعـــوذ تحـــت القرمـــل

إن الـــذي سمـــك الســـماء بـــنى لنـــا

عـــزا عـــلاك فمـــا لـــه مـــن منقـــل

أبلـــغ بـــني وقبـــان أن حلـــومهم

خفـــت فـــلا يزنـــون حبـــة خـــردل

إلهـــى أبـــاك عـــن المكـــارم والعـــلا

لي الكتـــائف وارتفـــاع المرجـــل

واضح من النصين اشتمال كل منهما على الفخر والهجاء :

فهذا الفرزدق يبدأ قصيدته مشيدا بأجداده وأنهم قد شيدوا بيتا قوي الدعائم يستمد قوته من الخالق الأعظم الذي خلق السماء ثم يذكر مفتخرا أسماء أجداده ، ويسمي منهم : زرارة ، ومجاشع ، ونهشل ، ويعير جريرا أن ليس له مثل هؤلاء الأجداد العظماء ، وأن بيته واه قد نسجت عليه العنكبوت خيوطها لضعفه وهزاله ، ويبين أنه يدعى غير

أبيه ، لذلك لم يجد بأسا في سرقة شعر الفرزدق وادعائه نسبتها إليه ، كما لم ينس الافتخار ببني قبيلته المحاربين وما يتصفون به من شجاعة وبأس عند قتال العدو .

أما جرير فإنه يبدأ قصيدته بنقض ماقال الفرزدق ، وأن عليه أن يخزى لأن البيت الذي شيده أجداده في منزلة متدنية ، بل هو في الحضيض الأسفل ، وأن جريرا انصب عليهم من السماء كصاعقة ، فاختطف الفرزدق من بينهم ، ثم يشيد بعقول قومه ، وأنها ثابتة راسخة رسوخ الجبال ، وأن حلوم قوم الفرزدق خفيفة لا تساوي حبة خردل .

ويتضح التناص عند الشاعرين فيما يلي :

- الفكرة في النصين واحدة تقوم على الفخر الممزوج بالهجاء .
- اختلاط الفخر بالهجاء ، حتى لا تكاد تفصل أحدهما عن الآخر
- ويبدو التناص واضحا ملموسا في أخذ عبارات ، وأبياتا بعينها مثل :قول الفرزدق :

إنّ الـــذي سَـــمَكَ السّـــماءَ بَـــنى لَنَـــا

بَيْتـــاً، دَعَائِمُـــــهُ أعَـــزُّ وَأطْـــوَلُ

بَيْتـــاً بَنَـــاهُ لَنَـــا المَلِيـــكُ، ومَـــا بَـــنى

حَكَـــمُ السّـــمَاءِ، فإنّـــهُ لا يُنْقَـــلُ

ويقول جرير:

أخزى الـذي سمـك السـماء مجاشـعا

وبـنى بنـاءك في الحضـيض الأسـفل

ولقـد بنيـت أخـس بيـت يبـتنى

فهـدمت بيـتكم بمثلـي يـذبل

ويقول الفرزدق :

أحْلامُنَـا تَـزِنُ الجِبَـالَ رَزَانَـةً،

وَتَخَالُنَـا جِنّـاً، إذا مَـا نَجْهَـلُ

فَـادْفَعْ بكَفّـكَ، إنْ أَرَدْتَ بِنَاءنـا،

ثَهْـلانَ ذا الهَضَـباتِ هَـل يَتَحَلحـلُ

ويقول جرير :

أحلامنـا تـزن الجبـال رزانـة

ويفـوق جاهلنـا فعـال الجهـل

فـارجع إلى حكمـي قـريش إنهـم

أهـل النبـوة والكتـاب المـترل

ويقول الفرزدق :

خالي الذي غَصَبَ المُلُـوكَ نُفُوسَـهمْ،

وإلَيْـهِ كَـانَ حِبَـاءُ جَفْنَـةَ يُنْقَـلُ

إنّـــا لَنَضــــرِبُ رَأسَ كُـــلّ قَبيلَـــةٍ،

وأَبُـــوكَ خَلْـــفَ أَتَانِـــهِ يَتَقَمّـــلُ

وَشُغِلتَ عن حَسبِ الكِرَامِ وَما بَنَـوا؛

إنّ اللّئـــيمِ عَـــنِ المَكَـــارِمِ يُشْـــغَلُ

ويقـول جرير :

كـــان الفـــرزدق إذ يعـــوذ بخالـــه

مثـــل الـــذليل يعـــوذ تحـــت القرمـــل

إن الـــذي سمـــك الســـماء بـــنى لنـــا

عـــزا عـــلاك فمـــا لـــه مـــن منقـــل

- وقد صاغ الشاعران أبيات قصيدتيهما على نغمات وإيقاع بحر الكامل بما يتمتع به من رحابة واتساع، مبعثه كثرة التفعيلات، كما بدا التناص ملموسا في اختيار حرف الروي اللام المكسورة والمضمومة ، ولو تتبعنا محتوى كل قصيدة على حدة لتبين لنا مقدار ما أخذ الشاعر من أفكار ومعاني الشاعر الآخر.

٢- المعارضات :

وهذا لون آخر من ألوان التناص ، شاع وانتشر في جنبات تراثنا الشعري .

والمعارضة : تعني أن يتناول الشاعر موضوعا تناوله شاعر قديم أو معاصر له في نفس الموضوع ويصوغ أفكاره على أوزان البحر الشعري نفسه .

ولا بد لنا أن نتوقف عند هذا الفن لنرى مابين الشاعرين من تماثل وبواعث القول عند كل منهما وما في النصين من أخذ وتناص مباشر ، لأن الشاعر في هذا اللون من الشعر يعلن صراحة أنه يحاكي شاعرا بعينه ، ويضع يدك في جلاء وظهور على مواضع تأثره بالآخر ، ويزيد على ذلك بإيراد عبارات وصور ، وربما أبيات أخذها ممن يعارض، وليس في ذلك عيب ، لأن المعارضة تقليد ومحاكاة .

ومن اشهر المعارضات :

- سينية شوقي التي عارض فيها البحتري:

يقول البحتري :

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبسي

ويقول شوقي في معارضته :

اختلاف النهار والليل ينسي اذكرا لي الصبا وأيام أنسي

- ومنها نونية شوقي التي عارض فيها نونية بن زيدون :

يقول ابن زيدون :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا وناب، عن طيب لقيانا تجافينا



ويقول شوقي في معارضته :

يانــائح الطلــح أشــباه عوادينــا نشجى لواديك أم نأسى لوادينــا

ونستطيع أن نتوقف مع المعارضة وقفة نتأمل فيها تقنياتها الفنية وما فيها من تناص.

تأمل معي واحدة من المعارضات المعروفة في تراثنا الشعري ، وهي قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي التي عارض فيها بردة البوصيري.

يقول البوصيري في قصيدة (البردة النبوية) مادحا النبي صلى الله عليه وسلم ، ومشيدا بأخلاقه وسماته ، وتكريم الله له ، وما نال من شرف المنزلة بين الأنبياء والمرسلين :

يقول :

أَمِــنْ تَــذَكُّرِ جِيْــرَانٍ بِــذِي ســلم

مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِــن مُقْلَــةٍ بِــدَمِ؟

أم هبــت الــرِّيْحُ مِــنْ تِلْقَــاءِ كَاظِمَــةٍ

وأومض البرق في الظلماء مــن إضــم؟

فَمَا لِعَيْنَيْــكَ إِنْ قُلْــتَ اكْفُفَــا هَمَتَــا

وما لِقَلْبِــكَ إِنْ قُلْــتَ اسْــتَفِقْ يَهِــم؟

أَيَحْسَــبُ الصَّــبُّ أَنَّ الْحُــبَّ مُنْكَــتِم

مَّــا بَــيْنَ مُنْسَــجِمٍ مِّنْــهُ وَمُضْــطَرِمِ؟

لولاَ الْهَوىٰ لَمْ تُرِقْ دَمْعًا عَلَـى طَلَـلٍ
ولا أرقــت لــذكر الْبَــانِ وَالْعَلَــمِ
فَكَيْــفَ تُنْكِـرُ حُبًّـا بَعْـدَمَا شَـهِدَتْ
به عَلَيْـكَ عَـدُولُ الـدَّمْعِ وَالسَّـقَمِ؟
وأثبت الوجـد خطـي عـبرة وضـنى
مثـل البـهار علـى خـديك والعـنم
نعم سرى طيف مـن أهـوى فـأرقني
والحــب يعتــرض اللــذات بــالألم

ويقول :

يَا لائِمِي فِي الهـوى الْعُـذْرِيِّ معـذرة
مِنِّي إِلَيْـكَ وَلَـوْ أَنْصَـفْتَ لَـمْ تَلُـمِ
مَحَضْتَنِي النُّصْحَ لـٰكِن لَّسْتُ أَسْـمَعُهُ
إن الْمُحِـبَّ عَـنِ الْعُـذَّالِ فِي صَـمَمِ

ويقول في مدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم :

محمـــد سَـــيِّدُ الْكَـــوْنَيْنِ وَالثَّقَلَـــيْن
وَالْفَـرِيقَيْنِ مِـنْ عَـرَبٍ وَّمِـنْ عجـم
نَبِيُّنَـــا الآمِـــرُ النَّـــاهِي فَـــلاَ أَحَـــدٌ
أَبَـــرَّ فِي قَـــوْلِ لاَ منـــه ولا نعـــم

هُوَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شفاعته

لِكُلِّ هَوْلٍ مِّنَ الأَهْوَالِ مُقْتَحِمِ

دعا إلى اللهِ فَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ

مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلٍ غَيْرِ منفصمِ

فَاقَ النَّبِيِّيْنَ فِي خَلْقٍ وَّفِي خُلُقٍ

ولم يُدَانُوهُ في عِلْمٍ وَلاَ كَرَمِ

وَكُلُّهُمْ مِّن رَّسُولِ اللهِ ملتمس

غَرْفًا مِّنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِّنَ الديم

وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمِ

مِن نُّقْطَةِ الْعِلْمِ أو من شكلة الحلم

================

ويقول شوقي في نهج البردة معارضا البوصيري(٩) :

ريم على القاع بين البان والعلم ... أحل سفك دمى في الأشهر الحرم

رمى القضاء بعيني جؤذر أسدا ... يا ساكن القاع،أدرك ساكن الأجم

لما رنا حدثتني النفس قائلة ... يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمي

جحدتها و كتمت السهم في كبدي ... جرح الأحبة عندي غير ذي ألم

رزقت أسمح ما في الناس من خلق ... إذا رزقت التماس العذر في الشيم

يا لائمي في هواه، والهوى قدر ... لوشفك الوجد لم تعذل و لم تلم

لقــد أنلتــك أذنــا غــير واعيــة ورب منتصت والقلب في صــمم

يا ناعس الطرف،لا ذقت الهوى أبـدا أسهرت مضناك في حفظ الهوى فنم

ويقول في القصيدة نفسها في مدح النبي صلى اللّه عليه وسلم :

يــا أَفصَــحَ النــاطِقينَ الضــادَ قاطِبَــةً
حديثك الشهد عنــد الــذائق الفهـــم

سَــرَت بَشــائِرُ بِالهــادي وَمَولِــدِهِ
في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم

أَتَيتَ وَالنــاسُ فَوضــى لا تَمُــرُّ بِهِــمْ
إِلا عَلــى صَــنَمٍ قَــد هــامَ في صَــنَمِ

وَالأَرضُ مَملــوءَةٌ جَــورًا مُسَــخَّرَةٌ
لِكُــلِّ طاغِيَــةٍ في الخَلــقِ مُحــتَكِمِ

وَالخَلــقُ يَفتِــكُ أَقــواهُمْ بِأَضــعَفِهِمْ
كَاللَيثِ بِــالبَهْمِ أَو كَــالحوتِ بِــالبَلَمِ

أَســرى بِــكَ اللَــهُ لَــيلاً إِذ مَلائِكُــهُ
وَالرُسلُ في المَسجِدِ الأَقصى عَلى قَــدَمِ

لَمّــا خَطَــرتَ بِــهِ اِلتَفّــوا بِسَــيِّدِهِمْ
كَالشُهبِ بِالبَــدرِ أَو كَالجُنــدِ بِــالعَلَمِ

صَــلّى وَراءَكَ مِنــهُمْ كُــلُّ ذي خَطَــرٍ
وَمَــن يَفُــز بِحَبيــبِ اللهِ يَــأتَمِمِ

جُبتَ السَماواتِ أَو ما فَوقَهُنَّ بِهِمْ
عَلى مُنَوَّرَةٍ دُرِّيَّةِ اللُجُمِ

مَشيئَةُ الخالِقِ الباري وَصَنعَتُهُ
وَقُدرَةُ اللهِ فَوقَ الشَكِّ وَالتُهَمِ

حَتّى بَلَغتَ سَماءً لا يُطارُ لَها
عَلى جَناحٍ وَلا يُسعى عَلى قَدَمِ

وَقيلَ كُلُّ نَبِيٍّ عِندَ رُتبَتِهِ
وَيا مُحَمَّدُ هَذا العَرشُ فَاستَلِمِ

خَطَطتَ لِلدينِ وَالدُنيا عُلومَهُما
يا قارِئَ اللَوحِ بَل يا لامِسَ القَلَمِ

يا أَحمَدَ الخَيرِ لي جاهٌ بِتَسمِيَتي
وَكَيفَ لا يَتَسامى بِالرَسولِ سَمي؟

في هذ المعارضة تجد التناص ملموسا في نواحي كثيرة منها :

١- القصيدتان تسيران على منهج واحد ، فقد بدأ كل شاعر قصيدته متغزلا ، ثم ثنى بمديح النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وبين مواطن القدوة فيه ، وما يميزه من طيب خلق ، وعظمة رسالة ، وكذلك بيان مكانته المرموقة بين الأنبياء صلوات الله وتسليماته عليهم جميعا ، فالتناص ماثل في ذكر الأفكار نفسها عند شوقي .

٢- ومع تقليد شوقي ومحاكاته أفكار البوصيري نفسها ، إلا أنه يكسوها ألفاظا من عنده ، وهنا تبدو خصوصيته ومقدرته على الانتقاء والاختيار ، وهذا لا يقلل من جمال ما أتى به البوصيري من ألفاظ.

٣- البحر الشعري واحد في كلتا القصيدتين ، فقد نظم كل من الشاعرين قصيدته على تفعيلات بحر البسيط ، وهو بحر معروف بكثرة تفعيلاته ، ولا يستطيع السباحة فيه إلا كل ماهر صيرفي أوتي الدراية الكافية بالأوزان والتفعيلات وما تحوي لغة الضاد من دقائق وأسرار.

٤- وقد برز التناص واضحا في إيراد شوقي أبيات بعينها، وإن اختلفت في بعض الألفاظ ،في مواضع كثيرة من القصيدة ، لا بأس أن نورد بعضها :

يقول البوصيري :

يَا لاَئِمِي فِي الهَوى الْعُذْرِيِّ معذرة
مِنِّي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

ويقول شوقي :

يا لائمي في هواه، والهوى قدر   لو شفك الوجد لم تعذل و لم تلم

ويقول البوصيري :

مَحَضْتَنِي النُّصْحَ لَـكِن لَّسْتُ أَسْـمَعُهُ
إن الْمُحِـبَّ عَـنِ الْعُـذَّالِ في صَـمَمِ

ويقول شوقي :

لقـد أنلتـك أذنـا غـير واعيـة   ورب منتصت والقلب في صـمم

ويقول البوصيري :

فَـاقَ النَّبِيِّـيْنَ فِـي خَلْـقٍ وَّفي خُلُـقٍ
ولم يُـدَانُوهُ في عِلْـمٍ وَلاَ كَـرَمِ

ويقول شوقي :

صَـلّى وَراءَكَ مِنـهُمْ كُـلُّ ذي خَطَـرٍ
وَمَـن يَفُـز بِحَبيـبِ اللهِ يَـأْتَمِمِ

والمعارضة هنا تحمل قيما فنية عالية بما فيها من عمق أفكار، ووضوح معنى، وبما تضم من صور جمالية وأساليب إنشائية وخبرية، يمكن أن نتبينها ونقف على أسرار بلاغتها لو قمنا بتحليل النص بلاغيا، ولكن المجال هنا ليس مجال تحليل نصي، ولم تقلل معارضة شوقي ومحاكاته البوصيري من قيمة النص، على ما فيه من تناص واتباع وتقليد.

============

أما سينية البحتري ، التي كتبها متأثرا بما أصاب كسرى ومملكته ، والفرس وماضاع منهم من ملك كبير ، فهذا نصها :

صنت نفسي عما يدنس نفسي ... وَتَرَفَّعتُ عَن جَدا كُلِّ جِبسِ
وَتَماسَكتُ حينَ زَعزَعَني الدَهـ ... ـرُ التِماسًا مِنهُ لِتَعسي وَنَكسي
بُلَغٌ مِن صُبابَةِ العَيشِ عِندي ... طَفَّفَتها الأَيّامُ تَطفيفَ بَخسِ
وَبَعيدٌ مابَينَ وارِدِ رِفْهٍ ... عَلَلٍ شُربُهُ وَوارِدِ خِمسِ
وَكَأَنَّ الزَمانَ أَصبَحَ مَحمو ... لًا هَواهُ مَعَ الأَخَسِّ الأَخَسِّ
وَاشتِرائي العِراقَ خُطَّةُ غَبنٍ ... بَعدَ بَيعي الشَآمَ بَيعَةَ وَكسِ
لاتَرُزني مُزاوِلًا لِاختِباري ... بَعدَ هَذي البَلوى فَتُنكِرَ مَسّي
وَقَديمًا عَهِدتَني ذا هَناتٍ ... آبِياتٍ عَلى الدَنِيّاتِ شُمسِ
وَلَقَد رابَني نُبُوُّ ابنُ عَمّي ... بَعدَ لينٍ مِن جانِبَيهِ وَأُنسِ
وَإِذا ماجُفيتُ كُنتُ جَديرًا ... أَن أَرى غَيرَ مُصبِحٍ حَيثُ أُمسي
حَضَرَت رَحلِيَ الهُمومُ فَوَجَّهـ ... ـتُ إِلى أَبيَضِ المَدائِنِ عَنسي
أَتَسَلّى عَنِ الحُظوظِ وَآسى ... لِمَحَلٍّ مِن آلِ ساسانَ دَرسِ
أَذكَرَتنيهِمُ الخُطوبُ التَوالي ... وَلَقَد تُذكِرُ الخُطوبُ وَتُنسي
وَهُمُ خافِضونَ في ظِلِّ عالٍ ... مُشرِفٍ يَحسِرُ العُيونَ وَيُخسي
مُغلَقٍ بابُهُ عَلى جَبَلِ القَبـ ... ـقِ إِلى دارَتَي خِلاطَ وَمُكسِ

حِلَلٌ لَم تَكن كَأطلالِ سُعدى   في قِفارٍ مِنَ البَسابِسِ مُلسِ

ويقول:

وَمَساعٍ لَولا المُحاباةُ مِنّي   لَم تُطِقها مَسعاةُ عَنسٍ وَعَبسِ
نَقَلَ الدَهرُ عَهدَهُنَّ عَنِ الـ   ـجِدَّةِ حَتّى رَجَعنَ أَنضاءَ لُبسِ
فَكَأَنَّ الجِرْمازَ مِن عَدَمِ الأُنـ   ـسِ وَإِخلالِهِ بَنِيَّةُ رَمسِ
لَو تَراهُ عَلِمتَ أَنَّ اللَيالي   جَعَلَت فيهِ مَأتَمًا بَعدَ عُرسِ
وَهوَ يُنبيكَ عَن عَجائِبِ قَومٍ   لا يُشابُ البَيانُ فيهِم بِلَبسِ
وَإِذا مارَأَيتَ صورَةَ أَنطا   كِيَّةَ اِرتَعتَ بَينَ رومٍ وَفُرسِ
وَالمَنايا مَواثِلٌ وَأَنوشِر   وانَ يُزجي الصُفوفَ تَحتَ الدِرَفسِ
في اخضِرارٍ مِنَ اللِباسِ عَلى أَصـ   ـفَرَ يَختالُ في صَبيغَةِ وَرسِ
وَعِراكُ الرِجالِ بَينَ يَدَيهِ   في خُفوتٍ مِنهُم وَإِغماضِ جَرسِ
مِن مُشيحٍ يَهوى بِعامِلِ رُمحٍ   وَمُليحٍ مِنَ السِنانِ بِتُرسِ
تَصِفُ العَينُ أَنَّهُم جِدُّ أَحيا   ءَ لَهُم بَينَهُم إِشارَةُ خُرسِ
يَغتَلي فيهِم ارتِيابي حَتّى   تَتَقَرّاهُمُ يَدايَ بِلَمسِ
قَد سَقاني وَلَم يُصَرِّد أَبو الغَو   ثِ عَلى العَسكَرَينِ شَربَةَ خُلسِ
مِن مُدامٍ تَظُنُّها وَهيَ نَجمٌ   ضَوَّأَ اللَيلَ أَو مُجاجَةُ شَمسِ
وَتَراها إِذا أَجَدَّت سُرورًا   وَارتِياحًا لِلشارِبِ المُتَحَسّي
أُفرِغَت في الزُجاجِ مِن كُلِّ قَلبٍ   فَهيَ مَحبوبَةٌ إِلى كُلِّ نَفسِ

وَتَوَهَّمتُ أَنَّ كِسرى أَبَرويـ … ـزَ مُعاطِيَّ وَالبَلَهبَذَ أُنسي

حُلُمٌ مُطبِقٌ عَلى الشَكِّ عَيني … أَم أَمانٍ غَيَّرنَ ظَنّي وَحَدسي

وَكَأَنَّ الإيوانَ مِن عَجَبِ الصَنـ … ـعَةِ جَوبٌ في جَنبِ أَرعَنَ جِلسِ

يُتَظَنّى مِنَ الكَآبَةِ إِذ يَبـ … ـدو لِعَينَي مُصَبِّحٍ أَو مُمَسّي

مُزعَجًا بِالفِراقِ عَن أُنسِ إِلفٍ … عَزَّ أَو مُرهَقًا بِتَطليقِ عِرسِ

عَكَسَت حَظَّهُ اللَيالي وَباتَ الـ … ـمُشتَري فيهِ وَهوَ كَوكَبُ نَحسِ

فَهوَ يُبدي تَجَلُّدًا وَعَلَيهِ … كَلكَلٌ مِن كَلاكِلِ الدَهرِ مُرسي

لَم يَعِبهُ أَن بُزَّ مِن بُسُطِ الديـ … ـباجِ وَاستَلَّ مِن سُتورِ الدِّمَقسِ

مُشمَخِرٌّ تَعلو لَهُ شُرُفاتٌ … رُفِعَت في رُؤوسِ رَضوى وَقُدسِ

لابِساتٌ مِنَ البَياضِ فَما تُبـ … ـصِرُ مِنها إلا غَلائِلَ بُرسِ

لَيسَ يُدرى أَصُنعُ إِنسٍ لِجِنٍّ … سَكَنوهُ أَم صُنعُ جِنٍّ لِإِنسِ

غَيرَ أَنّي أَراهُ يَشهَدُ أَن لَم … يَكُ بانيهِ في المُلوكِ بِنُكسِ

فَكَأَنّي أَرى المَراتِبَ وَالقَو … مَ إِذا ما بَلَغتُ آخِرَ حِسّي

وَكَأَنَّ الوُفودَ ضاحينَ حَسرى … مِن وُقوفٍ خَلفَ الزِحامِ وَخُنسِ

وَكَأَنَّ القِيانَ وَسطَ المَقاصيـ … ـرِ يُرَجِّعنَ بَينَ حُوٍ وَلُعسِ

وَكَأَنَّ اللِقاءَ أَوَّلَ مِن أَمـ … ـسِ وَوَشكَ الفِراقِ أَوَّلَ أَمسِ

وَكَأَنَّ الَّذي يُريدُ اتِّباعًا … طامِعٌ في لُحوقِهِم صُبحَ خَمسِ

عُمِّرَت لِلسُرورِ دَهرًا فَصارَت … لِلتَّعَزّي رِباعُهُم وَالتَأَسّي

فَلَهــا أن أُعينَهــا بِــدُموعٍ   موقَفاتٍ عَلـى الصَـبابَةِ حُـبسِ
ذاكَ عِندي وَلَيسَت الـدارُ داري   باِقتِرابٍ مِنها وَلا الجِنسُ جِنسـي
غَيرَ نُعمى لِأَهلِها عِنـدَ أَهلـي   غَرَسوا مِن زَكائِها خَـيرَ غَـرسِ
أَيَّـدوا مُلكَنـا وَشَـدّوا قُـواهُ   بِكُماةٍ تَحـتَ السَـنَّورِ حُمـسِ
وَأَعـانوا عَلـى كَتائِـبِ أَريـا   طَ بِطَعنٍ عَـلى النُحورِ وَدَعـسِ
وَأَراني مِن بَعدُ أَكلَـفُ بِالأَشـ   ـرافِ طُرًّا مِن كُـلِّ سِـنخٍ وَأُسِّ

وهذه سينية شوقي ، التي قالها وهو في منفاه بالأندلس بعيدا عن مصر متفجعا مما أصابه من بين واغتراب ، ومتذكرا مصر ونيلها وتاريخها وحضارتها ، يقول فيها :

اخـتلاف النـهار والليـل ينسـي
اذكـرا لي الصـبا وأيـام أنسـي
وصـفا لي مـلاوة مـن شـباب
صـورت مـن تصـورات ومـس
عصـفت كالصـبا اللعـوب ومـرت
سـنة حلـوة ولـذة خلـس
وسلا مصر: هل سـلا القلـب عنـها
أو أسـا جرحـه الزمـان المؤسـي

كلمــا مــرت الليــالي عليــه

رق، والعهــد في الليــالي تقســي

مســتطار إذا البــواخر رنــت

أول الليــل، أو عــوت بعــد جــرس

راهــب في الضــلوع للســفن فطــن

كلمــا ثــرن شــاعهن بنــقس

يــا ابنــة الــيم، مــا أبــوك بخيــل

مالــه مولعــاً بمنــع وحــبس

أحــرام علــى بلابلــه الــدوح

حــلال للطــير مــن كــل جــنس؟

كــل دار أحــق بالأهــل إلا

في خبيــث مــن المــذاهب رجــس

نفســي مرجــل، وقلــبي شــراع

بهمــا في الــدموع ســيري وأرســي

واجعلــي وجهــك (الفنــار) ومجــراك

يــد(الثغــر) بــين (رمــل) و(مكــس)

وطــني لــو شــغلت بالخلــد عنــه

نــازعتني إليــه في الخلــد نفســي

وهفــــا بالفـــــؤاد في سلســــبيل

ظمــأ للســواد مــن (عــين شمــس)

شـــهد الله لم يغــب عــن جفــوني

شخصـــه ســاعة ولم يخــل حســي

يــا فــؤادي لكـــل أمـــر قـــرار

فيـــه يبـــدو وينجلـــي بعـــد لـــبس

علقـــت لجــــة الأمــــور عقــــولاً

طالت الحــوت طــول ســبح وغــس

غرقـــت حيـــث لا يصـــاح بطـــاف

أوغريـــــق، ولا يصـــــاخ لحـــــس

فلـــك يكســـف الشـــموس نهـــاراً

ويســــوم البــــدور ليلــــة وكــــس

ومواقيـــــت للأمـــــور إذا مـــــا

بلغتـــها الأمـــور صـــارت لعكـــس

دول كالرجـــــال مرتهنـــــات

بقيـــام مـــن الجـــدود وتعـــس

وليـــل مـــن كـــل ذات ســـوار

لطمـــت كـــل رب (روم) و(فـــرس)

سددت بالهلال قوساً وسلت
خنجرا ينفذان من كل ترس

حكمت في القرون (خوفو) و(دارا)
وعفت (وائلاً) وألوت (بعبس)

أين(مروان) في المشارق عرش
أموي وفي المغارب كرسي؟

سقمت شمسهم فرد عليها
نورها كل ثاقب الرأي نطس

ثم غابت وكل شمس سوى هاتيك
تبلى ، وتنطوي تحت رمس

وعظ (البحتري) إيوان (كسرى)
شفتني القصور من (عبد شمس)

رب ليل سريت والبرق طرفي
وبساط طويت والريح عنسي

أنظم الشرق في (الجزيرة) بالغرب
وأطوى البلاد حزناً لدهس

في ديار من الخلائف درس
ومنار من الطوائف طمس

وربى كالجنـــان في كنــف الزيتـــون

خضــــر، وفي ذرا الكـــرم طلـــس

لم يـــرعني ســوى ثـــرى قـــرطبي

لمســت فيــه عــبرة الــدهر خمســي

يـــا وقـــى الله مـــا أصـــبح منــه

وسـقى صـفوة الحيـا مـا أمـــسي

قريــــة لا تعــــد في الأرض كانــــت

تمســك الأرض أن تميــد وترســـي

غشـــيت ســـاحل المحـــيط وغطـــت

لجــة الــروم مــن شــراع وقـــلس

ركـــب الـــدهر خـــاطري في ثراهـــا

فـــأتى ذلـــك الحمـــى بعـــد حـــدس

فتجلـــت لي القصـــور ومـــن فيهـــا

مـــن العـــز في منـــازل قعـــس

ســـنة مـــن كـــرى وطيـــف أمـــان

وصحا القلب مـن ضـلال وهجـس

وإذا الــدار مـــا بهـــا مـــن أنـــيس

وإذا القـــوم مـــا لهـــم مـــن محـــس

ورقيـــق مـــن البيـــوت عتيـــق

جــاوز الألــف غــير مــذموم حــرس

أثـــر مـــن (محمـــد) وتـــراث

صــار للــروح ذي الــولاء الأمــس

بلـــغ الـــنجم ذروة وتنـــاهى

بين (ثهــلان) في الأســاس و(قــدس)

مرمـــر تســـبح النـــواظر فيـــه

ويطـــول المـــدى عليهـــا فترســـي

وســـوار كأنهـــا في اســـتواء

ألفـــات الـــوزير في عـــرض طـــرس

فتــرة الــدهر قــد كســت ســطريها

مااكتسى الهــدب مــن فتــور ونعــس

ويحهـــا ! كـــم تزينـــت لعلـــيم

واحـــد الـــدهر واســـتعدت لخمـــس

وكـــأن الرفيـــف في مســـرح العـــين

مـــلاء مـــدنرات الـــدمقس

ومكـــان الكتـــاب يغريـــك ريـــاً

ورده غائبـــاً فتـــدنو للـــمس

صـــنعة(الـــداخل) المبـــارك في

الغـــرب وآل لـــه ميـــامين شمـــس

ويقـول :

مـــن (لحمـــراء) جللـــت بغبـــار

الدهر كـالجرح بـين بـــرء ونكـس

كسنا الـبرق لـو محـا الضـوء لحظـاً

لمحتـها العيـون مـن طـول قـبس

حصـن (غرناطـة) ودار بـني الأحمـر

مـــن غافـــل ويقظـــان نـــدس

ويقـول :

جلـــل الـــثلج دونهـــا رأس(شـــيرى)

فبـــدا منـــه في عـــصائب بـــرس

ســـرمد شـــيبه، ولم أر شـــيئاً

قبلـــه يرجـــى البقـــاء وينســـي

مشت الحادثات في غـرف (الحمـراء)

مشـــي النعـــي في دار عـــرس

هتكـــت عـــزة الحجـــاب وفضـــت

ســدة البــاب مــن سمــير وأنســي

عرصـــات تخلـــت الخيـــل عنـــها

واســـتراحت مـــن احتـــراس وعـــس

ومغـــان علـــى الليـــالي وضـــاء

لم تجـــد للعشـــي تكـــرار مـــس

لا ترى غـير وافـدين علـى التـاريخ

ســـاعين في خشـــوع ونكـــس

نقلـــوا الطـــرف في نضـــارة آس

مـــن نقـــوش، وفي عصـــارة ورس

وقبـــاب مـــن لازورد وتـــبر

كـــالربى الشـم بـين ظـل وشمـس

وخطـــوط تكفلـــت للمعـــاني

ولألفاظهـــا بـــأزين لـــبس

وتـــرى مجلـــس الســـباع خـــلاء

مقفـر القـاع مـن ظبـاء وخـنس

لا (الثريـــا) ولا جـــواري الثريـــا

يـــتترلن فيـــه أقمـــار إنـــس

مرمـــر قامـــت الأســـود عليـــه

كلـــة الظـعـــر لينـــات المجـــس

تنشـــر المـــاء في الحيـــاض جمانـــاً

يـــتترى علـــى ترائـــب ملـــس

آخـــر العهـــد بـــالجزيرة كانـــت

بعـــد عـــرك مـــن الزمـــان وضـــرس

فتراهـــا تقـــول: رايـــة جـــيش

بـــاد بـــالأمس بـــين أســـر وحـــس

ومفاتيحهـــا مقاليـــد ملـــك

باعهـــا الـــوارث المضـــيع بـــبخس

خـــرج القـــوم في كتائـــب صـــم

عن حفاظ كموكـــب الـــدفن خـــرس

ركبـــوا بالبحـــار نعشـــاً وكانـــت

تحـــت آبـــائهم هـــي العـــرش أمـــس

رب بـــان لهـــادم، وجمـــوع

لمشـــت ومحســـن لمخـــس

إمـــرة النـــاس همـــة لا تـــأتى

لجبـــان ولا تســـنى لجـــبس

يـــا ديـــاراً نزلـــت كالخلـــد ظـــلاً

وجـــنى دانيـــاً وسلســـال أنـــس

محسـنات الفصـول لا نـــاجر فيهــا

بقـــيظ ولا جمـــادى بقــــرس

لا تحـــش العيـــون فـــوق رباهـــا

غـير حـور حـــو المراشـــف لعـــس

كســيت أفرخـــي بظلـــك ريشــاً

وربـــا في ربـــاك واشـــتد غرســـي

هـــم بنـــو مصـــر لا الجميـــل لـــديهم

بمضـــياع ولا الصـــنيع بمنســـي

مـــن لســـان علـــى ثنائـــك وقـــف

وجنـــان علـــى ولائـــك حـــبس

حســـبهم هـــذه الطلـــول عظـــات

مـــن جديـــد علـــى الـــدهور ودرس

وإذا فاتـــك التفـــات إلى الماضـــي

فقـــد غـــاب عنـــك وجـــه التأســـي

وفي هـاتين القصيدتين تـأثر واضـح وتنـاص ملمـوس يمكـن وضـع أيدينا عليه.

وبداية نوضح أن المعارضة نظام خاص ، وقراءة خاصة يقوم بها المبدع للنص الغائب، يستطيع من خلالها بناء نصه الجديد عبر آليات : الاجترار، والامتصاص ، والحوار ، والمحاكاة ، ويبرز التناص بين المعارضتين السابقتين فيما يأتي:

١- كتب البحتري قصيدته السينية الخالدة التي جابت الآفاق ، وتناقلتها الألسنة والأقلام عبر عصور طويلة من الأدب ، وأشبعها النقاد ومتخصصو الأدب والنقد درسا وتحليلا ، كتبها البحتري عندما زار بلاد الفرس ورأى إيوان كسرى وما آل إليه حاله ، وحركت (صورة أنطاكية) بواعث الأسى والحزن وهو يرى الجنود والقادة الفرس في معاركهم التي خاضوها وأبلوا فيها بلاء حسنا ، وراح يسترجع أيام الفرس وما كان لها من صولة وجولة ، وما كان لكسرى من سلطان وصولجان ، فجاءت السينية محملة بمشاعر الأسى ، مفعمة بتباريح الألم والتحسر ، مبرزا أن الأيام دول، وأنه من المحال أن تدوم الدنيا على حال .

٢- والفكرة نفسها نجدها عند أمير الشعراء أحمد شوقي ، فقد كتب سنيته المشهورة بعيدا عن مصر ، وقد حرمه المحتلون منها عندما نفوه إلى الأندلس وهناك تذكر ربوع مصر وما فيها جمال طبيعة

واعتدال مناخ ، ويتذكر بنفس والهة ملهوفة تاريخ مصر العريق ، وما شاده ملوكها وأبناؤها العظام ، ويتناول آثارها وحضارتها من معابد وأهرامات وعمارة متميزة أبهرت العالم وجعلت مصر مثار الاهتمام ،ويتذكر نيلها العذب وما أفاض على الوادي من خير وعطاء ، وما أفاض عليه من زرع ونماء، ثم يجتر أيام صباه وذكرياته العذبة في ربوعها بين أهله وذويه ، فينفطر حزنا وألما ، ويزداد شوقا لتراب وطنه العظيم ، ويأسى لما آل إليه حال المصرين وقد فرقهم الاحتلال الإنجليزي وباعد بينهم وبين وطنهم لينفرد بخيرات مصر ينعم بها ويتقلب في خيرها .

٣- القصيدتان تسيران على إيقاع بحر واحد هو البحر الخفيف ، بما يحمل من تنوع في التفعيلات ، وهذا في حد ذاته أعطى الشاعرين مساحة واسعة للتعبير عن أبعاد تجربتهما ، فضلا عما في اختيار السين المكسورة رويا من توفيق ملحوظ ، فقد جاء معبرا عما يعانيه كل من الشاعرين من انكسار وحزن .

٤- ولا يقف التناص عند هذا الحد بل هناك أبيات عند شوقي تكاد تتفق في بعض ألفاظها ومعانيها مع ما كتبه البحتري نذكر نماذج منها :

يقول البحتري :

أذكَرِتنيهُمُ الخُـــطوبُ التَـــوالي   وَلَقَد تُـذكِرُ الخُطـوبُ وَتُنسـي

ويقول شوقي :

اخـــتلاف النـــهار والليـــل ينســـي

اذكـــرا لي الصـــبا وأيـــام أنســـي

ويقول البحتري :

لَم يَعِبهُ أَن بُزَّ مِن بُسُـطِ الديـــ   ـباجِ وَاستَلَّ مِن سُتورِ الـدِّمَقسِ

ويقول شوقي :

وكأن الرفيف في مســرح العيـــ   ـــن مـلاء مـدنرات الـدمقس

ويقول البحتري :

أَتَسَـلّى عَـنِ الحُظـوظِ وَآسـى   لِمَحَلٍّ مِـــن آلِ ساسـانَ دَرسِ

ويقل شوقي :

حســـبهم هـــذه الطلـــول عظـــات

مـــن جديـــد علـــى الـــدهور ودرس

ويقول البحتري:

تَصِفُ العَـينُ أَنَّهُـم جِـدُّ أَحيـا   ءَ لَهُم بَيـنَهُم إِشـارَةُ خُـــرسِ

ويقول شوقي :

خـــرج القـــوم في كتائـــب صـــم

عن حفاظ كموكــب الــدفن خــرس

ويقول البحتري :

وَتَماسَكتُ حينَ زَعزَعَني الدَهـــ ــرُ التِماسًا مِنهُ لِتَعسي وَنَكسي

ويقول أمير الشعراء أحمد شوقي :

لا ترى غير وافدين على التاريخ

ساعين في خشوع ونكس

ولنا أن نطلع على نموذج آخر من المعارضات لنتبين ما فيه تناص وأخذ وما بينهما من تماثل ومحاكاة ، وتأمل معي نونية ابن زيدون التي يقول فيها :

أضْحَى التّنائي بَديلاً مِنْ تَدانِينَا،

وَنَابَ عَنْ طيبِ لُقْيانَا تجافينَا

ألاّ وَقَد حانَ صُبحُ البَينِ، صَبّحَنا

حَيْنٌ، فَقَامَ بِنَا للحَيْنِ نَاعِينَا

مَنْ مبلغُ الملبسِينا، بانتزاحِهمُ،

حُزْناً، معَ الدهرِ لا يبلى ويُبْلينَا

غِيظَ العِدا مِنْ تَساقِينا الهوَى فدعَوْا

بِأنْ نَغَصَّ، فَقالَ الدّهر آمينَا

فَانحَلّ ما كانَ مَعقُوداً بأَنْفُسِنَا؛

وَانْبَتّ ما كانَ مَوْصُولاً بأيْدِينَا



وَقَدْ نَكُـونُ، وَمَـا يُخشَـى تَفَرّقُنـا،

فـاليومَ نحـنُ، ومَـا يُرْجـى تَلاقينَـا

يا ليتَ شعرِي، و لم نُعتِـبْ أعـاديَكم،

هَلْ نَـالَ حَظّـاً مـنَ العُتبَـى أعادينَـا

لم نعتقـدْ بعـدكمْ إلاّ الوفـاء لكُـمْ

رَأيـاً، ولَـمْ نَتقلّـدْ غَـيرَهُ دِينَـا

ما حقّنـا أن تُقِـرّوا عـينَ ذي حَسَـدٍ

بنـا، ولا أن تَسُـرّوا كاشِـحاً فِينَـا

كُنّا نـرَى اليَـأسَ تُسْـلِينا عَوَارِضُـه،

وَقَـدْ يَئِسْـنَا فَمَـا لليـأسِ يُغْرِينَـا

ويقول :

بِنْـتُم وَبِنّـا، فَمـا ابتَلّـتْ جَوَانحُنَـا

شَـوْقاً إلَـيكُمْ، وَلا جَفّـتْ مآقِينَـا

نَكادُ، حِـينَ تُنَـاجِيكُمْ ضَمائرُنـا،

يَقضـي علَينـا الأسَـى لَـوْلا تأسّـينَا

حَالَـتْ لِفقـدِكُمُ أيّامُنـا، فغَـدَتْ

سُوداً، وكانـتْ بكُـمْ بِيضـاً لَيَالِينَـا

إذْ جانِبُ العَـيشِ طَلْـقٌ مـن تألُّفِنـا؛

وَمَرْبَـعُ اللّهْـوِ صَـافٍ مِـنْ تَصَـافِينَا

وَإذْ هَصَـرْنَا فُنُـونَ الوَصْـلِ دانيـة

قِطَافُهـا، فَجَنَيْنَـا مِنْـهُ مـا شِـينَا

لِيُسقَ عَهـدُكُمُ عَهـدُ السّـرُورِ فَمـا

كنـتم لأروَاحِـنَا إلاّ رَيـاحينَا

لا تَحْسَـبُوا نَـأيَكُمْ عَنّـا يغيّرُنـا؛

أنْ طالَمـا غَيّـرَ النّـأيُ المُحِبّيْنَـا!

وَاللهِ مَـا طَلَبَـتْ أهْواؤنَـا بَـدَلا

مِنْكُمْ، وَلا انصـرَفتْ عـنكمْ أمانينَـا

ويقول :

يا ساريَ البَرْقِ غادِ القصرَ وَاسقِ بـه

مَن كانَ صِرْف الهَوى وَالـوُدَّ يَسـقينَا

وَاسـألْ هُنالِكَ: هَـلْ عَنّـى تَـذكُّرُنا

إلفـاً، تَـذكُّرُهُ أمسَـى يعنّينَـا؟

وَيَـا نسـيمَ الصَّـبَا بلّـغْ تحيّتَنَـا

مَنْ لَوْ على البُعْـدِ حَيّـا كـان يحيينـا

فهـــلْ أرى الـــدّهرَ يقضـــينا مســـاعفَةً

مِنْـــهُ، وإنْ لم يكُـــنْ غبّـــاً تقاضِـــينا

رَبيـــبُ مُلـــكٍ، كَـــأنّ اللّـــهَ أنْشَـــأهُ

مِسكاً، وَقَـــدّرَ إنشـــاءَ الـــوَرَى طِينَـــا

أوْ صَـــاغَهُ وَرِقـــاً مَحْضـــاً، وَتَوجـــهُ

مِـــنْ نَاصِـــعِ التّـــبرِ إبْـــداعاً وتَحسِـــينَا

إذَا تَـــأوّدَ آدَتْـــهُ، رَفاهِيّـــةً ،

تُـــومُ العُقُـــودِ، وَأدمتَـــهُ البُـــرَى لِينَـــا

كانتْ لَـــهُ الشّـــمسُ ظئـــراً في أكِلّتـــه،

بَـــلْ مـــا تَجَلّـــى لهـــا إلاّ أحايِينَـــا

كأنّمـــا أثبتَـــتْ، في صَـــحنِ وجنتِـــهِ،

زُهْـــرُ الكَوَاكِـــبِ تَعويـــذاً وَتَزيِينَـــا

ما ضَـــرّ أنْ لمْ نَكُـــنْ أكفـــاءه شـــرَفاً،

وَفي المَـــوَدّةِ كـــافٍ مِـــنْ تَكَافِينَـــا؟

يا رَوْضَـــةً طالَمـــا أجْنَـــتْ لَوَاحِظَنَـــا

وَرْداً، جَـــلاهُ الصِّـــبا غضّـــاً، وَنَسْـــرِينَا

ويقـول :

وَيَـــا حيـــاةً تَمَلّيْنَـــا، بزهرَتِهَـــا،

مُـــنىً ضـــروبَاً، ولـــذّاتٍ أفانينَـــا

وَيَــا نعِيمــاً خطرْنَــا، مِــنْ غَضــارَتِهِ،
فِي وَشْيِ نُعْمَى ، سَـحَبنا ذَيلَـه حينَــا
لَســنا نُسَــمّيكِ إجْــلالاً وَتَكْرِمَــةً؛
وَقَــدْرُكِ المُعْتَلــي عَــنْ ذاكَ يُغْنينَــا
إذا انفرَدَتِ وما شُــورِكتِ في صِــفَةٍ،
فحســبُنا الوَصْــفُ إيضَــاحاً وتبْيينَــا
يــا جنّــةَ الخلــدِ أُبــدِلنا، بســدرَتِها
والكــوثرِ العــذبِ، زقّومــاً وغســلينَا
كأنّنَــا لم نبِــتْ، والوصــلُ ثالثُنَــا،
وَالسّعدُ قَدْ غَضَّ مــن أجفــانِ وَاشــينَا
إنْ كان قد عزّ في الدّنيا اللّقــاءُ بكــمْ
في مَوْقِــفِ الحَشــرِ نَلقــاكُمْ وَتَلْقُونَــا
سِــرّانِ في خــاطِرِ الظّلمــاءِ يَكتُمُنَــا،
حــتى يكــادَ لســانُ الصّــبحِ يفشــينَا
لا غَرْوَ في أنْ ذكَرْنا الحزْنَ حينَ نَهــتْ
عنهُ النُّهَــى ، وَتركْنــا الصّــبْرَ ناسِــينَا
إنّا قرَأنا الأسَى ، يوْمَ النّــوى ، سُــوَراً
مَكتوبَــةً ، وَأخَــذْنَا الصّــبرَ يكفينــا

أمّـــا هـــواكِ، فلـــمْ نعـــدِلْ بمَنْهَلِـــهِ
شُـــرْباً وَإنْ كـــانَ يُرْوِينَـــا فيُظمِينَـــا
لَمْ نَجْفُ أفـقَ جمـالٍ أنـتِ كوكبُـهُ
ســـالِينَ عنـــهُ، وَلَم نهجُـــرْهُ قالِينَـــا
وَلا اختِيـــاراً تَجَنّبْنـــاهُ عَـــنْ كَثَـــبٍ،
لكـــنْ عَـــدَتْنَا، علـــى كُـــرْهٍ، عَوَادِينَـــا
نأسَى عَليـكِ إذا حُثّـتْ، مُشَعْشَـعَةً،
فِينـــا الشَّـــمُولُ، وغنَّانَـــا مُغَنّينَـــا
لا أكْؤسُ الـرّاحِ تُبـدي مـن شمائِلِنَـا
سِـيّما ارْتيـاحٍ، وَلا الأوْتـارُ تُلْهِينَـا

ويقول :

دومي على العهدِ، ما دُمنا، مُحافِظَـةً،
فـالحرُّ مَـنْ دانَ إنْصـافاً كمـا دينَـا
فَما استعضْـنا خَلـيلاً منـكِ يحبسُـنا
وَلا اسـتفدْنا حبيبـاً عنـكِ يثنينَـا
وَلَوْ صبَا نحوَنَـا، مـن عُلـوِ مطلعـه،
بدرُ الدُّجى لم يكـنْ حاشـاكِ يصـبِينَا
أبْكـي وَفـاءً، وَإنْ لم تَبْـذُلي صِـلَةً،
فَـالطّيفُ يُقْنِعُنَـا، وَالـذّكرُ يَكفِينَـا

وَفي الجَـوَابِ مَتَـاعٌ، إنْ شَـفَعتِ بِـهِ
بيضَ الأيادي، التِي مـا زِلـتِ تُولينَـا
عليـكِ منّـا سَـلامُ اللّـهِ مـا بَقِيَـتْ
صَـبَابَةٌ بِـكِ نُخْفِيهَـا، فَتَخْفِينَـا

وهذه نونية شوقي :

يا نائح الطلح أشباه عـوادينا ... نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟
ماذا تقص علينا غير أن يدا ... قصت جناحك جالت فى حواشينا؟
رمى بنا البين أيكا غير سامرنا ... أخا الغريب : وظلا غير نادينا
كل رمته النوى ريش الفراق لنا ... سهماً ، وسل عليك البين سكينا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع ... من الجناحين عي لا يلبينا
فإن يك الجنس يابن الطلح فرقنا ... إن المصائب يجمعن المصابينا
لم تأل ماءك تحنانا ولا ظلماً ... ولا أدكارا ، ولا شجوا أفانينا
تجر من فنن ساقا إلى فنن ... وتسحب الذى ترتاد المؤاسينا
أساة جسمك شتى حين تطلبهم ... فمن لروحك بالنطس المداوينا

ويقول :

آهًا لنا نازحى أيك بأندلس ... وإن حللنا رفيفاً من روابينا
رسم وقفنا على رسم الوفاء له ... نجيش بالدمع ، والإجلال يثنينا
لفتيه لا تنال الأرض أدمعهم ... ولا مفارقهم إلا مصلينا

لو لم يسودوا بدين فيه منبهة — للناس كانت لهم أخلاقهم دينا
لم نسر من حرم إلا إلى حرم — كالخمر من بابل سارت لدارينا
لما نبا الخلد نابت عنه نسخته — تماثل الورد خيريا و نسرينا
نسقى ثراهم ثناء ، كلما نثرت — دموعنا نظمت منها مراثينا
كادت عيون قوافينا تحركه — وكدن يوقظن فى الترب السلاطينا

ويقول :

لكن مصر وإن أغضت على مقة — عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفت تمائمنا — وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا — وأربع أنست فيها أمانينا
ومطلع لسعود من أواخرنا — ومغرب لجدود من أوالينا
بنا فلم نخل من روح يراوحنا — من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا — وباسمه ذهبت فى اليم تلقينا
ومصر كالكرم ذى الإحسان فاكهة — للحاضرين وأكواب لبادينا
يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا — بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا
لما ترقرق فى دمع جوانحنا — هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا
الليل يشهد لم تهتك دياجيه — على نيام و لم تهتف بسالينا
والنجم لم يرنا إلا على قدم — قيام ليل الهوى للعهد راعينا

كزفــرة فى سمــاء الليــل حــائرة ‏ ‏ ‏ ممــا نــردد فيــه حــين يضــوينا

بالله إن جبت ظلماء العباب على ‏ ‏ ‏ بجانــب النــور محــدوا بجرينــا

تــرد عنــك يــداه كــل عاديــة ‏ ‏ ‏ إنســاً يعــثن فســاداً أو شــياطينا

حتى حوتك سمــاء النيــل عاليــة ‏ ‏ ‏ على الغيوث وإن كانت ميامينــا

وأحرزتك شفوف اللازورد على ‏ ‏ ‏ وشى الزبرجد من أفواف وادينــا

وحازك الريف أرجــاء مؤرجــة ‏ ‏ ‏ ربت خمائل واهتــزت بساتينــا

فقف إلى النيل واهتف فى خمائلــه ‏ ‏ ‏ وانزل كما نزل الطــل الرياحينــا

وآس مــا بات يذوى من منازلنا ‏ ‏ ‏ بالحادثات ويضوى من مغانينا

ويا معطرة الوادى سرت سحراً ‏ ‏ ‏ فطاب كل طروح مــن مرامينــا

ذكيــة الذيل لو خلنــا غلالتــها ‏ ‏ ‏ قمص يوسف لم نحســب مغالينــا

ويقــول :

أجشمت شوك السرى حتى أتيت لنا ‏ ‏ ‏ بــالورد كتبــاً وبالربــا عناوينــا

فلو جزيناك بــالأرواح غاليــــة ‏ ‏ ‏ عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا

هل من ذويــك مســكى نحملــه ‏ ‏ ‏ غرائب الشوق وشيا من أمالينــا؟

إلى الــذى وجــدنا ود غيرهــم ‏ ‏ ‏ دنيا وودهمو الصافى هــو الــدينا

يا من نغار عليهم مــن ضــمائرنا ‏ ‏ ‏ ومن مصون هــواهم فى تناجينــا

ناب الحنين إلــيكم فى خواطرنــا ‏ ‏ ‏ عن الــدلال علــيكم فى أمانينــا

جئنا إلى الصبر نــدعوه كعادتنــا ‏ ‏ ‏ فى النائبات فلــم يأخــذ بأيــدينا

وما غلبنا على دمع ولا جلد ... حتى أتتنا نواكم من صياصينا
ونابغى كان الحشر آخره ... تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
طوى دجاه بجرح من فراقكمو ... يكاد في غلس الأسحار يطوينا
إذا رسى النجم لم ترفأ محاجرنا ... حتى يزول ، ولم تهدأ تراقينا
بتنا نقاسى الدواهى من كواكبه ... حتى قعدنا بها : حسرى تقاسينا
يبدو النهار فيخفيه تجلدنا ... للشامتين ويأسوه تأسينا

ويقول:

سقيا لعهد كأكناف الربى رفة ... أنا ذهبنا وأعطاف الصبا لينا
إذا الزمان بنا غيناء زاهية ... ترف أوقاتنا فيها رياحين
الوصل صافية ، والعيش ناغية ... والسعد حاشية، والدهر ماشينا
والشمس تختال فى العقيان تحسبها ... بلقيس ترفل فى وشى اليمانينا
والنيل يقبل كالدنيا إذا احتفلت ... لو كان فيها وفاء للمصافينا
والسعد لو دام،والنعمى لواطردت ... والسيل لو عف، والمقدار لو دينا
ألقى على الأرض حتى ردها ذهبا ... ماء لمسنا به الإكسير أو طينا
أعداه من يمنه التابوت وارتسمت ... على جوانبه الأنوار من سينا
له مبالغ ما فى الخلق من كرم ... عهد الكرام وميثاق الوفيينا
لم يجر للدهر إعذار ولا عرس ... إلا بأيامنا أو فى ليالينا
ولا حوى السعد أطغى فى أعنته ... منا جيادا ولا أرخي ميادينا

ويقول :

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ... ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق ... إذا تلون كالحرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميزانا ولا صعدت ... فى ملكها الضخ عرشا مثل وادينا
ألم تؤله على حافاته ورأت ... عليه أبناءها الغر الميامينا ؟
إن غازلت شاطئيه فى الضحي لبسا ... خمائل السندس الموشية الغينا
وبات كل مجاج الواد من شجر ... لوافظ القز بالخيطان ترمينا
وهذه الأرض من سهل ومن جبل ... قبل القياصر دناها فراعينا
ولم يضع حجرا بان علي حجر ... فى الأرض إلا علي آثار باننا
كأن أهرام مصر حائط نهضت ... به يد الدهر لا بنيان فانينا
أوأنه الفخم من عليا مقاصره ... يفني الملوك ولا يبقي الأوانينا
كأنها ورمالا حولها التطمت ... سفينة غرقت إلا أساطينا
كأنها تحت لألاء الضحى ذهبا ... كنوز فرعون غطين الموازينا
أرض الأبوة والميلاد طيبها ... مر الصبا من ذيول من تصابينا
كانت محجلة ، فيها مواقفنا ... غرا مسلسلة المجرى قواقينا
فآب من كره الأيام لاعبنا ... وثاب من سنة الأحلام لاهينا
ولم ندع لليالي صافيا ، دعت ... بأن نغص فقال الدهر :آمينا

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة — والبر نار وغي ،والبحر غسلينا
سعيا إلى مصر نقضى حق ذاكرنا — فيها إذا نسي الوافي وباكينا
كنز بحلوان عند الله نطلبه — خير الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا — لم يأته الشوق إلا من نواحينا
إذا حملنا لمصر أوله شجنا — لم ندر أي هوى الأمين شاجينا

وفي هذين النموذجين تناص ملحوظ :

- يبرز ابن زيدون في قصيدته ما يختلج في صدره من لواعج الشوق، وما يدور في نفسه من زفرات الأسى ، وما يحمل في قلبه من شوق وحنين فاق كل حد ، ثم يتذكر محبوبته ولادة ، ولا ينفك يذكر سماتها وما تتمتع به من جمال خلاب ، وروح طيبة طالما فاضت عليه ودا وحنانا ، وهي في ابتعادها تعتصره شوقا وحرمانا ،فلا ينفك يطلعنا على ما في داخله من تباريح الشوق وآلام الجوى متعلقا باللقاء الذي صار بعيد المنال في هذه الدنيا، ولكنه آمل فيه حتى ولو في مواقف الحشر ، يقول :

إنْ كان قد عزّ في الدّنيا اللّقاءُ بكمْ
في مَوْقِفِ الحَشرِ نَلقاكُمْ وَتَلْقُونَا

- أما أمير الشعراء أحمد شوقي فمحبوبته مصر ، وقد باعد جنود الاحتلال الإنجليزي بينه وبينها فصار في منفاه يجتر عبير الذكريات وأيام الصبا وساعات اللقاء بأهله وذويه ، ثم يتغنى بتاريخ مصر العريق ، ويصف حضارتها ، الرائعة ، وشمسها الساطعة ومناخها الطيب ، وما فيها من وابل صيب ، كما يشدو بنيلها العذب الذي غمر الوادي وملأه خصبا وجاد عليه بالنماء وفاض عليه بالخير والعطاء ، ويصف أهلها الطيبين وما يتمتعون به من طيب خلق وكرم .
- وقد وقّع الشاعران أنغام قصيدتيهما على إيقاع بحر البسيط الثري بتفعيلاته فأتاح لهما متسعا ومنحهما رحابة في التعبير عما يحملان من مشاعر وأفكار، أما حرف الرويّ (النون المشبعة بالألف) فما أجمله في موضعه ! لقد جاء مناسبا لحالة الأسى ، وما كان عليه الشاعران من وله وحزن في لحظات افتراقهما عن إلفهما .
- وهذا تناص ملموس في الأبيات ، نلمحه عند شوقي بارزا في ثنايا ومنعطفات نونيته مثل :

يقول ابن زيدون :

وَلا اخْتِياراً تَجَنّبْناهُ عَنْ كَثَبٍ،

لكنْ عَدَتْنا، على كُرْهٍ، عَوَادِينَا



ويقول شوقي :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟

يقول ابن زيدون :

يا سارِيَ البَرْقِ غادِ القصرَ وَاسقِ بِه

مَن كانَ صِرْفَ الهَوى وَالوُدَّ يَسقينَا

ويقول شوقي

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا

ويقول ابن زيدون

إنّا قرَأنا الأسَى ، يوْمَ النّوى ، سُوراً

مَكتوبَةً ، وَأخَذْنَا الصّبرَ يكفينا

ويقول شوقي

جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا فى النائبات فلم يأخذ بأيدينا

يقول ابن زيدون :

إذَا تَأوّدَ آدَتْهُ، رَفَاهِيَةً ،

تُومُ العُقُودِ، وَأدمتَهُ البُرَى لِينَا

كانتْ لَهُ الشّمسُ ظِئراً في أكِلّتِه،

بَلْ ما تَجَلّى لها إلاّ أحايِينَا

ويقول شوقي :

ويا معطرة الوادى سرت سحراً فطاب كل طروح من مرامينا
ذكية الذيل لو خلنا غلالتها قميص يوسف لم نحسب مغالينا

يقول ابن زيدون :

أمّا هواكِ، فلمْ نعدِلْ بمَنْهَلِهِ
شُرْباً وَإنْ كانَ يُرْوِينَا فيُظمِينَا
لمْ نَجْفُ أفقَ جمالٍ أنتِ كوكبُهُ
سالِينَ عنهُ، وَلم نهجُرْهُ قالِينَا

ويقول شوقي:

الليل يشهد لم تهتك دياجيه على نيام ولم تهتف بسالينا
والنجم لم يرنا إلا على قدم قيام ليل الهوى للعهد راعينا

هذه نماذج للمعارضات الشعرية التي أثرت ساحة الشعر، وأنبتت في جوانبه غراسا وارفة الأفنان تهمي بالعطر والريحان، وما زالت تبعث في أرجائنا عطرا طيبا، لم يغض من شأنها ما فيها من تناص، ولم يقلل من قيمتها ما فيها من أخذ وتأثر.

وقد كتب أمير الشعراء أحمد شوقي إلى شاعر النيل حافظ إبراهيم، في سنة ١٩١٧ وكان شوقي منفياً في الأندلس فأرسل هذه الأبيات لحافظ إبراهيم:

يا ساكني مصر إنا لا نزال على   عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم   شيئاً نبل به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنة   ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

فأجابه حافظ إبراهيم بهذه الأبيات:

عجبت للنيل يدري أن بلبله   صاد ويسقي ري مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده   ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه   وقد نأينا وإن كنا مقيمينا

ومن أنواع التناص :

٣ نثر المنظوم :

ويكون بتحويل القصيدة الشعرية إلى نص نثري ، وهذه الظاهرة قديمة، تناولها شيوخ النقد وأساتذته القدامى، أشار إليه الثعالبي في كتاب سماه (نثر النظم وحل العقد) ، كما تناوله أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين في باب سماه (في حسن الأخذ وحل المنظوم)، وابن الأثير ، وغيرهما من النقاد ، وليسمح لي القارىء المحترم باستعراض ما كتبه شيخنا الجليل العلامة ضياء الدين ابن الأثير.

تناول ابن الأثير ظاهرة نثر المنظوم في كتابه (الوشي المرقوم في حل المنظوم) وهو يختلف عن سابقيه الذين كتبوا في هذه الظاهرة ،

ذلك أن الثعالبي جعل كتابه نثر النظم وحل العقد إرضاء (لولي النعم أبي العباس خوارزم شاه) أما كتاب (الوشي المرقوم في حل المنظوم) فهو كتاب تعليمي ، يعلم فيه ابن الأثير ويهدف إلى إكساب القارىء مهارة حل المنظوم ونثره .

يعترف ابن الأثير – رحمه الله – أنه ليس أول من كتب في هذه المسألة ، وأن آخرين سبقوه في تناولها" ولئن سبقني إلى حل الشعر سابق ، وطرق ورده قبلي طارق ، فإنه ركب البحر إلي هجينا لا هجانا، وظن خواطري فيه سميعة بصيرة ، وكانت صما وعميانا ، وليس كل بيضاء شحمة ، ولا كل بيان حكمة ، وما مثل من سبقني في هذا الفن ومثلي إلا كما قال أبو تمام :

مثل العجوز التي ولت بشاشتها وبان عنها شباب كان يحظيها
لُزت بها ضرة زهراء واضحة كالشمس أحسن منها عند رائيها

على أن كلا من الناس باستحسان ما يقوله مغرى ، ولا يزال المرء في أمان من عقله حتى يؤلف كتابا (ص ٤٦) لعله يقصد من قوله هذا أنه متميز عن غيره فيما كتب عن حل المنظوم من الشعر ، وله الحق في ذلك .

وشيخنا الجليل لم يكتف – في كتابه – بحل منظوم الشعر ، بل تطرق إلى نثر (شرح) الأخبار النبوية ، وشرح آيات القرآن الكريم .

" وأما حل (شرح) آيات القرآن العزيز ، فليس كنثر المعاني الشعرية ، لأن ألفاظه ينبغي أن يحافظ عليها لمكان فصاحتها(ص ٢٤).

وقد قسم ابن الأثير كتابه إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في حل الشعر

الفصل الثاني : في حل (شرح) آيات القرآن الكريم

الفصل الثالث : في حل (شرح) الأخبار النبوية

وهو في معرض تناوله حل المنظوم يدعو إلى ثلاثة أشياء :

١- حفظ القرآن الكريم

٢- حفظ ما ينبغي له من الأخبار النبوية

٣- حفظ كثير من الشعر العربي .

أما الفصل الأول والذي عنون له (حل الشعر) فقد قسمه إلى :

- حل الشعر بلفظه (وجعله عشرة أقسام)
- حل الشعر ببعض لفظه
- حل الشعر بغير لفظه

ويبين أن حل الشعر يأتي في المؤخرة " وهو أدناها مرتبة أن يحل الشعر بلفظه ، وهذا لأفضلية فيه ، وقد يجيء منه ما عليه مسحة من جمال، وذلك نزر يسير ، إلا أن الغالب على ما يحل بلفظه أن يأتي غثا باردا عليه قرة البلل، وفترة الخلل " (ص ٥٨) .

أما من يفعل ذلك – يحل الشعر بلفظه – فإنه يزري به وهو " كمن هدم بناء ثم أخذ تلك الآلات المهدومة فأنشأ بها بناء آخر ، فإنه يجيءمخلولق البناء لا محالة ، وكان الأولى منه أن ترك تلك الآلات واستجد آلات أخرى لتكون أحسن منه وأجمل " (ص ٥٩).

وهناك من الشعر ما لا يجوز حله (ويقصد به الحِكَم) كقول المتنبي :

لعـل قولـك محمـود عواقبـه　　　وربما صحت الأجساد بالعلل

وكذلك الأمر في أمثال العرب المشهورة مثل :

- أن ترد الماء بماء أكيس
- إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا
- اليوم خمر وغد أمر

وفي إطار حل مثل هذه الحكم يقول " ولا بأس بتقديم لفظ وتأخيره في المثل إذا ورد على نصه وفصه " (ص ٦٤) ويمثل لذلك بنماذج منها :

مثل (أن ترد الماء بماء أكيس) يقول في حله " قلت في فصل يتضمن ذكر الرجل الحازم وهو قد خبر الدهر في حلب أفاويقه ، ونقض مواثيقه ، فهو لا يرد الماء إلا بالماء ، ولا يرتضي بمسرى أرض بنجوم سماء ، ومن شأنه أن يرود الأمور برأيه ، ولا يبعث فيها رائدا "(ص٦٤).

وفي حل مثل (إن كنت ريحا فقد لا قيت إعصارا) يقول : "لقونا وقد أشرعوا الأسنة التي شاركتهم الأسماء ، وإذا وردت أروتهم من غليل الحقد ، كما ترتوي من شرب الدماء ، لكن ذادها عن الورود ما هو أصلب منها عودا ، في يد من هو أمضى منهم حدا ، وأسعد جدودا ، وإذا لا قت الريح إعصارا زالت عن طريقه ، وضاق ذرعها بمضيقه " (ص ٦٥).

كما بين أن من الأبيات التي لا يجوز حلها ما تناول أسماء القبائل والأشخاص ، والأبيات التي تتضمن تشبيهات راقية كقول امرىء القيس :

كان قلوب الطير رطبا ويابسا   لدى وكرها العناب والحشف البالي

فقوله (رطبا ويابسا) و (العناب والحشف البالي) لا بد من ذكرهما كما ذكره امرؤ القيس ، لأنه تشبيه مخصوص بألفاظ مخصوصة فلا يمكن تغيير ألفاظه ، وقد نثرت هذا البيت فقلت

"وأشهب تفخر السوابق بأنها له سمية ، وترتمي الطير في جو السماء ، وهي له رمية ...ولقد تكاثرت قلوب الطير لديه في كل حال ، حتى شبه رطبها ويا بسها بالعناب والحشف البالي " (ص ٧٣).

ويقول في نثر بيت البحتري :

فإذا الأسنة خالطتها خلتها فيها خيال كواكب في ماء

وقد قلت في نثره : " ولقد سنوا دروع الحديد على مثلها ، ولولا اتقاء البغي لرأوا حمل العار في حملها ، فإذا صافحتها أسنة الخرصان، رأيت أشخاص الكواكب في غدران " (٧٥) .

ويقول في نثر بيت امرىء القيس :

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

" فإن ألفاظه : منجرد ، وكنات ، أوابد ، هيكل : فرائد في مكانها لا يجوز تبديلها بغيرها ، بل إذا أريد حله وجب المحافظة على تلك الفرائد ، وقد حللته فقلت في وصف فرس أدهم : وطالما امتطيت صهوة مطهم نهد ، فغنيت عن نشوة الكميت من ذات نهد ، يسابق الريح فيغير وجهها دون شق غباره ، وإن ظهر عليها رجعت حسرى في مضماره ، نسب إلى الأعوج ، وهو مستقيم الكر والفر ، وقد حنقت عليه الشمس ، إذ لا يمكنها أن ترسم ظله على الأرض إذا مر ، ليليّ الإهاب ،

لطم جبينه الصباح ببهائه، فغدا عليه وخاض يقتص منه في أحشائه ، وقد أغتدي عليه والطير في وكناتها، فلا يفوتني الأجدل ، وإذا أطلقته تصيد الوحش ، رأيتني على منجرد قيد الأوابد هيكل " (٨٥) .

وكذلك في نثر بيت الشعر :

يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقي اللحاء

ينثره ابن الأثير محافظا عل ماتضمنه من حكمة ، ومحافظا على ما فيه من تشبيه له خصوصية ، وجاء بألفاظ خاصة أكسبته الخلود والبقاء ، مما يجعل تغيير ألفاظه سببا في إضعاف مافيه من فصاحة وبلاغة .

وفي قول أبي تمام :

إذا حاربت في خلق لئيما فأنت ومن تجاريه سواء

يقول في نثر هذا البيت : " إذا ماشيت اللئيم في طرقه ، فقد سايرته في خلقه " ، ويقول عنه " إذا اتخذت اللئيم خليلا ، فقد صرت له عديلا " ويقول أيضا : " مجاراة اللئيم تسم وجه الحسب ، وتلحق النبع بالغرب ، فإن الخلق السيء يستتبع الخلق الحسن عل أثره ، وكدر الماء لا يبلغ بصفوه ، وصفوه مغلوب بكدره " (ص ٩١).

وفي إجمال طلب الرزق ،وأنه مقسوم لكل مخلوق ، غير مرتبط بقوة أو ضعف ، يورد ابن الأثير قول الشاعر :

يا طالب الرزق السني بقوة   هيهات أنت بباطل مشغوف
أكل العقاب بقوة جيف الفلا   ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف

ويقول في حل هذا الشعر ونثره : " ينبغي للمرء ألا يحرص في طلب رزقه ، بل يكله إلى الله الذي تولى القسمة في خلقه ، فإن النسر يأكل الجيف بعنفه ، والنحل يرعى الشهد برفقه " (ص ٩٦).

ثم ينثر قول المتنبي :

ترفق أيها المولى عليهم   فإن الرفق بالجاني عتاب

ويزيد عليه (إن الرفق بالجاني عتاب ، والإحسان إليه متاب) ويقول " إذا أحسنت إلى الجاني في قبالة جنايته ، كان ذلك سببا لتوبته أن يعاود جناية " (ص ١١٨).

وفي قول القائل :

خل عنا فإنما أنت فينا   واو عمرو أو كالحديث المعاد

يقول : وقد أتيت بهذا المعنى على وجه آخر فقلت : " لم أر له في حظوظ المساعي من أثر ، فهو في عدم الحاجة إليه كواو عمرو ، وفي الامتناع من الصرف كراء عمر " (ص ١٤١).

وفي الفصل الثاني الذي خصصه لكيفية شرح ونثر آيات القرآن الكريم ، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وضع ابن الأثير هذا الفصل تحت عنوان (حل آيات القرآن الكريم) وبدأ الحديث فيه داعيا إلى حفظ آيات القرآن الكريم وان يتخذ المرء في شرح آياته طريقا غير ما يتبع في حل الشعر ونثره ، مخاطبا القارىء قائلا : " واعلم أن كتاب الله هو أفصح الكلام وما ينبغي أن يسلك به مسلك الأشعار في حلها ، بل ينبغي أن يحافظ على ألفاظه لعدم القدرة على مماثلتها ومشابهتها " (ص ١٧٤) .

ويفرق ابن الأثير بين حل (شرح) الآية وأخذها بنصها ، لأن ذلك – في رأيه – ليس من هذا الفن في شيء، وغنما من باب التضمين .

وحل (شرح) آيات القرآن الكريم عنده على ضربين :

الأول : أن يؤخذ بعض الآية فيجعل أولا لكلام ، أو آخرا .

الثاني : أن يؤخذ معنى الآية الكريمة .

ويورد لذلك أمثلة نذكر منها :

- في ذم البخيل يقول :" جوده بعيد على الأمل ، غير مفتقر إلى العذل ، وإذا احتفل فهو نهر طالوت الذي حلل للغرفة لا للنهل ، وهذا مأخوذ من سورة البقرة في قول الله تعالى " فلما فصل

طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر، فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده " (ص ١٧٥).

- ويقول عن الاقتصاد في الرزق " الإنسان في كفالة الله يرزقه غير واثق، وهو في كل طريق سالك، ولكل باب فيه طارق، وكثيرا ما يأتيه وهو عنه نائم، ويقعد عنه وهو إليه قائم، وهذا تعريف في ا ناهوك فاتح أبوابه، ومسبب أسبابه ...وهذه معان شريفة عالية لا يلم بها إلا خاطر كان على المعاني غواصا، ولأوان وحشها قناصا، وبعض ذلك مأخوذ من من سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ... ﴾ [سورة العنكبوت:٦٠].
- وفي مجال التعزية يقول: " لو ذهب الحزن بالدمع وانهماله، والجزع وإعواله، لكان الصبر بصاحبه أحرى، ولو لم ينل به أجرا، فكيف وصلاة الله ورحمته من ثوابه؟ والجلالة والتقى مطويان في ضمن ثيابه؟ وما اعتاد المرء صبرا عن المصاب إلا كان فيه عوضا عن مصابه. في هذا الكلام معنى مأخوذ من القرآن الكريم في سورة البقرة في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ ....﴾ [سورة البقرة:١٥٧] (ص ١٨٣).

وفي الفصل الثالث :

(حل الأخبار النبوية):

يوصي ابن الأثير بحفظ الأحاديث النبوية ، ويقسم حلها إلى قسمين:

الأول : أن يؤخذ بعض اللفظ فيجعل أولا .

الثاني: أن يؤخذ المعنى وحده ويتصرف فيه بوجوه التصرفات .

وهذه أمثلة مما تضمنها كتاب (الوشي المرقوم في حل المنظوم):

- يقول في حديثه عن الصدقة: "ليست الصدقة لمن مردت على المسألة نفسه ، حتى صار فيها لحوحا، وكلمتْ المطالب وجهه حتى أصبحت فيه كدوحا، إنما الصدقة لمن قمصه الفقر لباسا، فستره ذلك اللباس، وكان لا يفطن به فيتصدق عليه ، ولا يقوم فلا يسال الناس .

يقول :

" وهذا مأخوذ من موضعين من الأخبار النبوية : الأول قول النبي صلى الله عليه وسلم " المسائل كدوح يكدح بها المرء وجهه، إلا أن يسال السلطان ، أو في أمر لا يجد فيه بد " والثاني قوله صلى الله عليه وسلم "ليس المسكين من ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، إنما المسكين من لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس " (ص ١٩٨).

- ومما قاله ابن الأثير في بيان فضل الجهاد ووصف المسلمين :

"وما منهم إلا من مشى إلى الحِمام مشي عمير بن الحُمام ، ورأى حياة يومه طويلة فقصرها بمبادرة الإقدام ، ولا يغلو ذلك لمن وجد سلعة الله سوقا ، وأحب أن يكون بعد موته حيا مرزوقا ، وهؤلاء هم سيوف الله التي إذا جردت زالت الهام عن مناكبها، واستوى في القتل أنفس مضروبها وضاربها، فلا عليها إذا جاهدت صابرة محتسبة ما كان من موارد هلكها ، ولا ألم عنها للكلوم إذا جاءت يوم القيامة ولونها لون الدم وريحها ريح مسك .

يقول :

" وههنا معنى ثلاثة أخبار : الأول : ما ورد في حديث غزوة بدر ؛ وهو أنه قال النبي صلى الله عليه وسلم : " قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض " فقال عميرين الحُمام : بخ بخ يا رسول الله ! فقال: ما حملك على قولك : بخ بخ ؟ قال : رجاء أن أكون من أهلها فقال : أنت من أهلها ، فأخرج تمرات من قرنه وجعل يأكلها ثم ألقاها من يده وقال : إن حييت آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة! ثم مشى إلى العدو وقاتل حتى قُتل .

الثاني : قوله صلى الله عليه وسلم : " ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة " .

والثالث : ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضل الجهاد ، وهو قوله : " والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة ولونه لون الدم وريحه ريح مسك ".

وفيه أيضا معنى قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٦٩] (ص ٢٠٦).

٤- ومن التناص (التقليد) :

المراد به هنا أخذ أفكار الآخرين والسير على نهجهم وتتبعهم في طرائق عرضها ، وما يسلكون إليها من سبل ، ومن ذلك :

- تقليد البارودي وشوقي للمتنبي في تضمين قصائدهم كثيرا من الحِكَم كما كان المتنبي يفعل ، وهذه طائفة من حِكَم المتنبي :

- أظمتني الدنيا فلما جئتها
مستسقيا مطرت علي مصائبا

-بذا قضت الأيام ما بين أهلها
مصائب قوم عند قوم فوائد

-ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدوا له ما من صداقته بد

-مـــن يهـــن يســـهل الهـــوان عليـــه

مـــــا لجـــــرح بميـــــت ايـــــلام

-لـــولا المشـــقة ســـاد النـــاس كلـــهم

الجـــود يفقـــر والإقـــدام قتـــال

-وخير مكان في الـدنا سـرج سـابح

وخـــير جلـــيس في الزمـــان كتـــاب

-ما كـــل مـــا يـــتمنى المـــرء يدركـــه

تجري الريـاح بمـا لا تشـتهي السـفن

-جود الرجال من الأيـدي وجـودهم

مـــن اللســـان فـــلا كـــانوا ولا الجـــود

-أبعـــين مفتقـــر إليـــك نظـــرتني

فـــأهنتني ورميـــتني مـــن حـــالق

-لســـت الملـــوم أنـــا الملـــوم لأنـــني

علقـــت آمـــالي بغـــير الخـــالق

-ولـــو كـــن النســـاء كمـــن فقـــدنا

لفضـــلت النســـاء علـــى الرجـــال

-فما التأنيث لاسـم الشـمس عيـب

ولا التـــذكير فخـــر للـــهلال

-قد كنت أشفق من دمعي على بصري

فـــاليوم كـــل عزيـــز بعـــدكم هانـــا

-ذو العقـــل يشـــقى في النعـــيم بعقلـــه

وأخـــو الجهالـــة في الشـــقاوة يـــنعم

-إذا ساء فعـــل المـــرء ســـاءت ظنونـــه

وصـــدق مـــا يعتـــاده مـــن تـــوهم

-ورب عائـــب قـــولا صـــحيحا

وآفتـــه مـــن الفهـــم الســـقيم

-كفى بك داءا أن ترى الموت شـــافيا

وحســـب المنايـــا أن يكـــن أمانيـــا

-أمـــا في هـــذه الـــدنيا كـــريم

تـــزول بـــه عـــن الـــنفس الهمـــوم

-و لم أر في عيـــوب النـــاس عيبـــا

كـــنقص القـــادرين علـــى التمـــام

-ولما صـــار ود النـــاس خبّـــا(كـــذبا)

جزيـــت علـــى ابتســـام بابتســـام

-كلمـــا أنبـــت الزمـــان قنـــاة

ركـــب المـــرء في القنـــاة ســـنانا

-على غير اختيار قبلت برك لي

والجوع يرضي الاسود بالجيف

-خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا

لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

-إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

-وما قتل الأحرار كالعفو عنهم

ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا

-شر البلاد بلاد لا صديق بها

وشر ما يكسب الإنسان ما يصم

-إذا كان ما تنويه فعلا مضارعا

مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

-فصرت إذا أصابتني سهام

تكسرت النصال على النصال

-فصرت لا أبالي بالرزايا

لأني ما انتفعت بأن أبالي

-وأتعب خلق الله من زاد همه

وقصر عما تشتهي النفس وجده



-وإذا أتتك مذمتي من ناقص

فهي الشهادة لي بأني كامل

-الحزن يقلق والتجمل يردع

والدمع بينهما عصي طيع

-يتنازعان دموع عين مسهد

هذا يجيء بها وهذا يرجع

-وإذا كانت النفوس كبارا

تعبت في مرادها الأجسام

-لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم

-إذا غامرت في شرف مروم

فلا تقنع بما دون النجوم

-فطعم الموت في أمر حقير

كطعم الموت في أمر عظيم

-سلام الذي فوق السماوات عرشه

تخص به يا خير ماش على الأرض

-ولابد من شكوى إلى ذي قرابة

يواسيك أو يسليك أو يتوجع

• وهذا البارودي يقول في بعض حكمه تقليدا للمتنبي :

فيا حُسْنَ ذاك اليومَ لو كان باقياً ... ويا طيبَ هذا الليلِ لو دام طيِّـبُ
يود الفتى ما لا يكـونُ طماعـةً ... ولم يدر أنّ الدهرَ بالنـاس قُلَّـبُ
ولو علم الإنسانُ مـا فيـه نفعُـهُ ... لأبصرَ مـا يـأتي، ومـا يتجنَّـبُ
ولكنها الأقدارُ تجـري بحكمِهـا ... علينا، وأمرُ الغيبِ سِرٌّ مُحَجَّـبُ

ويقول :

بـادر الفرصـة واحـذر فوتهـا ... فبلـوغ العـز في نيـل الفـرص
واغتـنم عمـرك إبـان الصـبا ... فهو إن زاد مـع الشـيب نقـص
إنمـا الـدنيا خيـال عـارض ... قلمـا يبقـى وأخبـار تقـص

ويقول أيضا :

لـن ينـال المـرء بـالعجز المـنى ... إنمـا الفـوز لمـن هـمّ فـنَص
إن ذا الحاجـة مـالم يغتـرب ... عن حمـاه مثـل طـير في قفـص
واترك الحرص تعش في راحـة ... قلمـا نـال مناه مـن حـرص
واجتنـب كـل غـبي مـائق ... فهـو كـالعير إذا جـد قمـص
إنمـا الجاهـل في العـين قـذى ... حيثما كان وفي الصـدر غصـص
واحـذر النمـام تـأمن كيـده ... فهو كالبرغوث إن جـد قـرص
واختبر من شـئت تعرفـه فمـا ... يعرف الأخلاق إلا مـن فحـص

وعلى هذه الشاكلة يقلد شوقي سابقيه : المتنبي والبارودي ، حتى لا تكاد تجد قصيدة من قصائده إلا وفيها أثر من خبرته الطيبة ، أوحِكَما من حِكمه :

مثل :

أجد الحياة حياة دهر ساعةً　　وأرى النعيم نعيم عمرٍ مقصرا

وأعد من حزم الأمور وعزمها　　للنفس أن ترضى وألا تضجرا

يا أيها السجناء في أموالهم　　أأمنتمو الأيام أن تتغيرا؟

لا يملك الإنسان من أحواله　　ما تملك الأقدار مهما قدرا

لا يبطرنك من حرير موطئ　　فلرب ماشٍ في الحرير تعثرا

ويقول :

جناية الجهل على أهله　　قديمة والجهل بئس الدليل

ويقول :

ولولا المحسنون بكل أرض　　لما ساد الشعوب ولا استقلوا

ويقول :

ما كل أهل الزهد أهل الله　　كم لاعبٍ في الزاهدين لاه!

ويقول أيضا :

صاح لا تخش عظيما　　فالذي في الغيب أعظم

ومن التقليد :

- **تقليد الغربيين في الرمزية والتشاؤم وإظهار الحزن :**

الرمز اصطلاحا : هو اللفظ القليل المشتمل على معان كثيرة بإيماء إليها ، أو لمحة تدل عليها .

وقد ظهرت الرمزية في العصر الحديث ، وعُرف بها الشعراء المنتمون إلى المذهب الرومانسي ، لميلهم إلى الولوج إلى العالم الذاتي للشاعر، وما فيه من أحاسيس وانفعالات ، ولأنه يناسب الأجواء الغامضة التي يصعب تحديدها وإيضاحها، فالرمز يوجز المعاني الكثيرة، ويوحي بالدلالة دون الحاجة إلى التفصيل والبيان، ويجعل لدى المتلقي جواً من التفاعل والدخول في حالة مشاركة مع الشاعر، وكان لكلّ شاعر رومانسي رؤيته الرمزية وعالمه الخاص:

ففي الغرب :

- كان الشاعر (شيلّي) يكثر من رموز الكهف والزورق والساقية والأفعى والصقر، وكان يرمز بالقمر والعندليب والنوم .
- وكان فيكتور هوجو يعشق الرموز الأسطورية والطبيعية المملوءة بالمهابة والرهبة
- وكانت أساطير اليونان وما تحمل من رموز ذات تأثير كبير في كتابات الغربيين .

وقد انتقلت عدوى الرمزية ، كما انتقل غيرها – مع أشياء كثيرة – إلى شعرنا العربي ، وحسبك أن تتأمل دواوين الشعراء المعاصرين لتتلمس الرمز واضحا جليا .

والرمزية العربية تعتمد على أساسين هما :

١- تناول المعنى بعبارات موجزة .

٢- التعبير عن الفكرة بطريقة غير مباشرة .

وفي إطلالة على موقف الشعراء العرب من الرمزية نجدها بادية لا تخطئها العين :

- فهذا (إيليا أبو ماضي) يقول في قصيدة المساء:

السحب تركض في الفضاء الرحب ركض الخائفين
والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبين
لكنما عيناك ذاهبتان في الأفق البعيد
سلمى بماذا تفكرين ؟
سلمى بماذا تحلمين ؟
أرأيت أحلام الطفولة تختفي خلف التخوم ؟
أم أبصرت عيناك أشباح الكهولة في الغيوم ؟
أم خفت أن يأتي الدجى الجاني ولا تأتي النجوم؟
أنا لا أرى ما تلمحين من المشاهد إنما

أطلالها في ناظريك تنم يا سلمى عليك

في هذا الجزء من القصيدة رموز كثيرة أتى بها (إيليا أبو ماضي) تقليدا للرومانسيين الغربيين وتناصا معهم، وماأتى به من رموز نلمسه فيما يلي :

- الشمس الصفراء رمز لرحيل العمر .
- وسلمى هنا رمز للإنسان بوجه عام .
- والدجى الجاني رمز للنهاية العمر .
- والعنوان نفسه (المساء) رمز لانقضاء العمر .

وفي شعر بدر شاكر السياب كثير من الرمز :

فشبح الموت، هو الفكرة التي سيطرت على عقله وكيانه ، فلا ينفك يذكر الموت كثيرا ، ويصف حالة القبر في شعره. ويجعل منه رمزاً في حالة اليأس والفشل، وهو الذي جعله في مراحل العمر يتذمر من الملال والأسى و يبكي و ينتحب كالسجين ويتمنى أن تطلق عليه رصاصة الرحمة فيقول:

في ليالي الخريفِ الطوال؛

آه لو تعلمينْ

كيف يَطغى عليّ الأسى و الملال؟!

في ضلوعي ظلامُ القبور السجين،

في ضلوعي يصبح الردى
بالتراب الذي كان أمي: "غدا
سوف يأتي. فلا تقلقي بالنحيب
عالَمُ الموت حيث السكون الرهيب!
سوف أمضي كماجئتُ واحسرتاه !
رصاصة الرحمة يا إله .

وهذا محمود حسن إسماعيل يرى في (الموج) رمزا لكل ما يكدر النفس البشرية ويحول بينها وبين السمو والانطلاق من شهوات وذنوب ومعاصٍ ، كما نلمح في شعره بعض مصطلحات الصوفية مثل : الحقيقة ، السر ، الوجد ، كل هذه الرموز نلمحها في قوله :

مزقي عن وجهك اليانع أسمال القناع
وارفعي الستر بلا خوف على أي متاع
زادك النور وفي دربك ينبوع الشعاع
فانفذي فالسر إن سرت على قيد ذراع
واصرعي الموج ، ولو أقبلت من غير شراع
واركبي الإعصار والإصرار في وجه القلاع
إنما الخائف عند الزحف محتوم الضياع

أما (البحر) في شعر محمود درويش ، فيحتل مساحة كبيرة ،

واستمع إليه يقول :

يا بحر البدايات إلى أين تعود ؟

أيها البحر المحاصر

بين أسبانيا وصور

هاهي الأرض تدور

لماذا لا تعود الآن من حيث أتيت ؟

آه من ينقذ هذا البحر ؟

دقت ساعة البحر

تراخى البحر

ويقول في القصيدة نفسها :

هل يموتُ البحرُ كالإنسان في الإنسان

أمْ فِي البحرِ؟

لا شيء يثير البحرَ في هذا المكانِ

ويقول:

حين نعتادُ الرحيلْ

مَرَّةً

تصبح كُلُّ الأمكنهْ

زَبَداً نطفو عَلَيهْ
ونميلْ
كلما مالَت بنا الريحُ
ونعتادُ بُكاء الأحصنهْ
حين نعتاد الرحيلْ
مَرَّةً
تصبح كُلُّ الأزمنهْ
لحظةً للقتل
كم مُتنا وكم مُتنار
وكان الكَهَنَهْ
خَدَماً للسيف منذ المعبد الأوَّلِ
حتى آخر الثورات،
والعاشقُ عَبْدَ السوسنه
....وسلاماً أيَّتُها الأرضُ الأسيرةْ
يا التي كانت عقابَ الله فينا
ثم صارت جَنَّةَ الله الصغيرةْ....
من سيحتاجُ ضحيَّه
ليرى البحر أمَامَهْ؟

من سيحتاج يمامةْ

ليُرَبِّي طفلَهُ في البندقيةْ؟

من سيحتاج الضحيّةْ

فهو يجعل من البحر رمزا للقوة والعظمة والغموض ، ويجعله نقطة انطلاق يفرغ من خلالها ما في نفسه من معان وأحاسيس .

وفي شعر نزار قباني نرى المرأة تحتل المقدمة فيما يأتي من رموز، هي عنده في كثير من شعره رمز للوطن ويشير إلى ذلك حين يقول :

كلما غنيت باسم امرأة

أسقطوا عني قوميتي وقالوا

كيف لا يكتب شعرا للوطن

فهل المرأة شيء آخر غير الوطن ؟

آه لو يدرك من يقرؤني

أن ما أكتبه في الحب

مكتوب لتحرير الوطن

وهناك الرمز الشعوري المأخوذ من ذاكرة الأدب العربي القديم والذي نلمحه في قول الشاعر مصطفى المسعودي :

آه كم أكره هذا الواقع

أورثني المتنبي نخوته

أورثني ابن الرومي دمعته

أورثني المجنون شقاوته

أورثني الذل العربي الراهن بلواه

ما أصعب أن يحيا الإنسان سجينا

منقسما بين ظلام الواقع

وزمان ضيعناه

لكن ...ارفع رأسك

في أعماقك تحمل روح الله

نلمح في هذا النموذج الشعري توظيفا للرمز الشعوري ، إذ يسترجع الشاعر الموروث الشعري العربي القديم ، ويجعل منه وسيلة يعبر بها عن رفضه الواقع المؤلم الذي تعيشه أمتنا العربية كما يعبر عن رفضه هذا الذل وهذا الانكسار.

أما ما يشيع في قصائد الشعراء الرومانسيين من نبرة الأسى والحزن فكثير نلمحه عند شعراء أبوللو والمهجر وغيرهم من الشعراء ، يقول إبراهيم ناجي:

ياحبيبا زرت يوما أيكه	طائر الشوق يغني ألمي
لك إبطاء المذل المنعم	وتجني القادر المحتكم
وحنيني لك يكوي أضلعي	والثواني جمرات في دمي

ويقول :

أعطني حريتي أطلق يديا ... إنني أعطيت ما استبقيت شيا
آه من قيدك أدمى معصمي ... لم أبقيه وما أبقى عليا؟
ما احتفاظي بعهود لم تصنها ... وإلام الأسر والدنيا لديا؟

ويقول خليل مطران في قصيدة المساء :

إني أقمت على التعلة بالمنى ... في غربة قالوا تكون دوائي
إن يشف هذا الجسم طيب هوائها ... أيلطف النيران طيب هواء؟
عبث طوافي في البلاد وعلة ... في علة منفاي لاستشفائي

ويقول :

ولقد ذكرتك والنهار مودع ... والقلب بين مهابة ورجاء
وخواطري تبدو تجاه نواظري ... كلمى كدامية السحاب إزائي
والدمع من جفني يسيل مشعشعا ... بسنا الشعاع الغرب المترائي
والشمس في شفق يسيل نضاره ... فوق العقيق على ذرا سوداء
مرت خلال غمامتين تحدرا ... وتقطرت كالدمعة الحمراء
فكأن آخر دمعة للكون قد ... مزجت بآخر أدمعي لرثائي
وكأنني آنست يومي زائلا ... فرأيت في المرآة كيف مسائي؟

تأمل كيف حول الشاعر منظر الغروب الجميل إلى مشهد حزين مؤلم يبعث الأسى في النفس ، فالخواطر حزينة ، والشمس دامعة

باكية، تميل وتغرب منحدرة على سحاب أسود ، وفي هذا المشهد الجنائزي المهيب نرى الكون يبكي مشاركة للشاعر ، وكأنه يرى نهايته ماثلة في مرآة هذا المساء الحزين .

وفي هذا تناص بين الشاعر وبين الومانسيين الغربيين من خلا تقليدهم في تشاؤمهم ، وسريان نزعة الحزن والألم في ثنايا قصائدهم .

ومن أنواع التناص :

٥ - الأخذ من الموروث الديني :

مثل تضمين الشعر آيات من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف ، وأمثلة ذلك كثيرة منها :

قول المتنبي :

أنـــا في أمـــة تـــداركها الله غريـــب كصـــالح في ثمـــود

ومن شواهد العقد الفريد :

قال الحسين بن الحسن الدمشقي :

وأشهد معشرا قد شاهدوه

عنت لجلال هيبته الوجوه

أنلني بالذي استقرضت خطا

فإن الله خلاق البرايا

يقول إذا تداينتم بدين فاكتبوه

مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ... ﴾ [سورة طه:١١١] ، وقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ...﴾ [سورة البقرة:٢٨٢] .

ويقول ابن النبيه في مدح الفاضل :

قمت ليل الصدود إلا قليلا ثم رتلت ذكركم ترتيلا
ووصلت السهاد أقبح وصل وهجرت الرقاد هجرا طويلا
وفؤادي قد كان بين ضلوعي أخذته الأحباب أخذا وبيلا
قل لراقي الجفون إن لعيني في بحار الدموع سبحا طويلا
ماس عجبا كأنه ما رأى طليحا ولا كثيبا مهيلا
وحمى عن محبه كأس ثغر كان منه مزاجها زنجبيلا
بان عني فصحت في أثر العيس ارحموني وأمهلوهم قليلا

واضح جلي ما في هذا النموذج من تناص ، فهو مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ④﴾ [سورة المزمل١ :٤] ومن قوله في السورة نفسها : ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [سورة المزمل:٧] وقوله: ﴿...وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [سورة المزمل: من الآية ١٤] وقوله: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [سورة المزمل:١١] وقوله: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ⑯﴾ [سورة المزمل:١٦] .

ومنه أيضا :

ما قاله الشاعر المصري الكبير: محمد عفيفي مطر، في قصيدته: (امرأة ليس وقتها الآن) التي نُشرت في ديوان: (أنت واحدها وهي أعضاؤك انتثرت ١٩٨٦م) ، **يقول :.**

اصدعْ بما تحلمُ

الوقتُ أوسَعُـه مرٌّ

أضيَقُـه مرٌّ، أنت تخطيتها

أربعون من العمر ولّـت، بلاد تولّـتْ

فليتك تملي ولاءكَ للحلمِ

ثم يتناول الشاعر في قصيدته وصف حال من أخرجوه من الأرض ، وأبعدوه عن وطنه عنوة ، **بقوله :**

أخرجوكَ من الأرضِ، كانت حواراهمْ

لغةً لستَ منها

الشوارعُ أوسعُها أضيقُ الصرخات بقلبكَ

وحشيةُ الجوعِ آنسُهـا يتفصـّدُ بالرعبِ

لا تعدُ عيناكَ عنهمْ إذا دخلوا الحلم أو خرجوا

وهو بذلك يتناص مع القرآن الكريم في قوله تعالى لنبيه الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) " وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ

رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَـنْهُمْ تُرِيـدُ زِينَـةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ".

٦ - ومنه تناص الفكرة :

بمعنى أن يأخذ شاعر فكرة شاعر آخر ويكسوها ألفاظا من عنده مثل قول **معروف الرصافي :**

يا قوم لا تتكلمــوا إن الكــلام محــرم
ناموا ولا تستيقظوا مــا فــاز إلا النــوم
وتأخروا عن كل ما يقضي بأن تتقــدموا
ودعوا التفهم جانبا فالخير أن لاتفهموا
وتثبتوا في جهلكم فالشر أن تتعلمــوا
أما السياسة فاتركوا أبدا وإلا تنــدموا
إن السياسة سرها لو تعلمون مطلســم
وإذا أفضتم في المباح من الحديث فجمجموا
والعدل لا تتوسموا والظلم لا تتجهمــوا
من شاء منكم أن يعيش اليوم وهو مكرم
فليمس لا سمع ولا بصر لديــه ولا فــم
لا يستحق كرامة إلا الأصــم الأبكــم

ودعوا السعادة إنما هي في الحياة تــوهم

فالعيش وهو منعم كالعيش وهو مذمم

فارضوا بحكم الدهر مهما كان فيه تحكم

وإذا ظلمتم فاضحكوا طربا ولا تتظلموا

إن قيل : هذا شهدكم مر فقولوا : علقم

أو قيل إن نهاركم ليل ، فقولوا : مظلم

أو قيل: إن ثماركم سيل، فقولوا مفعم

أو قيل:إن بلادكم يا قوم سوف تقسم

فتحمدوا وتشكروا ..وترنحوا وترنموا

أخذ الجواهري الفكرة نفسها فرأيناها متناولة بأكملها في قصيدة أسماها :

(تنويمة الجياع) يقول فيها :

نــامي جيــاع الشــعب نــا   مــي حرســتك آلهــة الطعــام

نــامي فــإن لم تشــبعي   مــن يقظــة فمــن المنــام

نــامي علــى زبــد الوعــو   د يــزين معســول الكــلام

نــامي تــزرك عــرائس الأ   حــلام في جــنح الظــلام

وتــرى زرائبــك الفســا   ح مبلطــات بالرخــام

نــامي فقــد أضــفى "العــرا   ء" عليــك أثــواب الغــرام

نامي فقد أنهى "مجيع الشعب" ايام الصيام
نامي فقد غنى "إله الحرب" ألحان السلام

نـــامي و ســـيري في منـــا ... مـــك مـــا اسـتطعت إلى الأمـــام
نـــامي علـــى تلـــك العظـــا ... ت الغـــر مـــن ذاك الإمـــام
يوصـــــيك ألا تطعمـــــي ... مـــن مـــال ربـــك في خطـــام
يوصـــيك أن تـــدعي المبـــا ... هـــج و اللذائـــذ للئـــام
و تعوضـــي عـــن كـــل ذل ... ك بالســـج ود و بالقيـــام
نـــامي فنومـــك خ يـــر مـــا ... حمـــل المـــؤرخ مـــن وســـام

ويقول :

نـــامي فـــإن صـــلاح أمـــ ... ـــر فاســـد في أن تنـــامي
و العـــروة الـــوثقى! إذا اســـ ... ـــتيقظت تـــؤذن بانفصـــام
نـــــامي وإلا فالصـــــفو ... ف تـــؤول منـــك إلى انقســـام
نـــامي تريحـــي الحاكمـــ ... ـــين مـــن اشـــتباك و التحـــام
نـــامي فجـــدران الســـجو ... ن تعـــج بـــالموت الـــزؤام
نـــامي علـــى جـــور كمـــا ... حمـــل الرضـــيع علـــى الفطـــام
نـــامي إليـــك تحـــيتي ... و عليـــك نائمـــة ســـلامي
نـــامي جيـــاع الشـــعب نـــا ... مـــي حرســـتك إلهـــة الطعـــام

في النصين تناص ملموس ، فالفكرة واحدة ، حيث نرى الموضوع واحدا يدور في فلك التهكم والسخرية من الأوضاع السيئة التي تعيشها الشعوب ، فالرصافي يحذر قومه من الكلام ويطلب منهم الصمت ، ويحذرهم من الشكوى ، ويطلب منهم الرضا بما يقع عليهم من ظلم . ويدعوهم إلى القناعة بما يقدم لهم من فتات وبقايا ، ويبين لهم أن السعادة كل السعادة في السكوت والخنوع .

وهذا الجواهري يدعو قومه إلى النوم والخلود إلى الدعة ، فقد تبسمت الحياة ، وحل السلام ، وانقشعت سحب الحرب ، وعم الصلاح، ولم يعد للفساد مكان ، ويحثهم على النوم والرقاد حتى تستقيم أمور الحياة ، وهو يبين لهم ان النوم راحة لهم من عناء كبير ، وراحة للحاكمين لانهم يرون السعادة في غفلة شعوبهم .

وواضح أن قول الرصافي :

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محـرم ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم

- أخذه الجواهري ونسج قصيدته من فعل الأمر (نامي) والذي كرره سبعة عشر مرة في ثنايا قصيدته .
- غير أن الرصافي صاغ قصيده من بحر الكامل (التام) بينما صاغ الجواهري قصيده من الكامل (المجزوء) .

٧ - التناص التاريخي:

يعرف التناص التاريخي بأنه تداخل نصوص تاريخية مختارة ومنتقاة مع النص الأصلي للقصيدة تبدو مناسبة ومنسجمة لدى المؤلف.

ومن ذلك نص (جدارية) للشاعر محمود درويش، يقول فيها :

"هزمتك يا موت الفنون جميعها.

هزمتك يا موت الأغاني في بلاد

الرافدين . مسلة المصري. مقبرة الفراعنة،

النقوش على حجارة معبد هزمتك

وانتصرت ، وأفلت من كمائنك

الخلود..."

يتضح التناص عند الشاعر هنا في استجلاء صفحات من التاريخ المتمثل في حضارة الرافدين ، وحضارة الفراعنة ، وما تضم من مسلات وآثار وأحجار ومقابر دالة على ما قدمته هاتان الحضارتان من فن وعلم ومعارف أفادت البشرية . وأشاعت في أرجائها العمران والتقدم .

ومن التناص التاريخي في شعر نزار قباني قصيدته التي يقول فيها :

في مدخل " الحمراء " كان لقاؤنا ..
ما أطيب اللقيا بلا ميعاد !
عينان سوداوان.. في حجريهما
تتوالد الأبعاد من أبعاد
هل أنت إسبانية؟ .. ساءلتها
قالت: وفي غرناطة ميلادي
غرناطة! وصحت قرون سبعة
في تينك العينين.. بعد رقاد
وأمية .. راياتها مرفوعة
وجيادها موصولة بجياد
ما أغرب التاريخ.. كيف أعادني
لحفيدة سمراء.. من أحفادي
وجه دمشقي .. رأيت خلاله
أجفان بلقيس .. وجيد سعاد
ورأيت منزلنا القديم .. وحجرة
كانت بها أمي تمد وسادي
والياسمينة، رصعت بنجومها

والبركة الذهبية الإنشاد

***

ودمشق .. أين تكون؟ قلت : ترينها

في شعرك المنساب نهر سواد

في وجهك العربي، في الثغر الذي

ما زال مختزنا شموس بلادي

في طيب " جنات العريف " ومائها

في الفل ، في الريحان، في الكباد

سارت معي .. والشعر يلهث خلفها

كسنابل تركت بغير حصاد

يتألق القرط الطويل بجيدها

مثل الشموع بليلة الميلاد

ومشيت مثل الطفل خلف دليلتي

وورائي التاريخ .. كوم رماد

الزخرفات أكاد أسمع نبضها

والزركشات على السقوف تنادي

قالت : هنا الحمراء .. زهو جدودنا

فأقرأ على جدرانها أمجادي

أمجادها!! ومسحت جرحا نازفا

ومسحت جرحا ثانيا بفؤادي

يا ليت وارثتي الجميلة أدركت

أن الذين عنتهم أجدادي

عانقت فيها عندما ودعتها

رجلا يسمى " طارق بن زياد"

وواضح أن الشاعر يستدعي تاريخ العرب في الأندلس وما كان لهم من ملك عريض ، وحضارة ، ومجد تليد ،فهو يتذكر قصر الحمراء ، وممالك العرب التي أقاموها : غرناطة ، وقرطبة ، وطليطلة ، وذلك حين يتحدث عن فتاته ، وقد رأى فيها ملامح أجداده العرب وما فيهم من شموخ وأنفة ، ويأسي لضياع هذا المجد العريق .

والتناص مع التاريخ يكون بأخذ نصوصه بطريقة أو بأخرى : بالإشارة إلى واقعة معينة ، أو باستدعاء موقف من المواقف ، أو تفسير ظاهرة ما ، أو تضمين النص الجديد إشارات تاريخية ذات صلة بموضوع النص .

ويتبادر للذهن سؤال : هل تعد الرواية التاريخية تناصا تاريخيا؟

يقول د / عبد الله حسين البار " وعلى ذلك أراني أميل إلى القول بنفي الصواب عن مصطلح (رواية تاريخية)، و أوثر الاقتصاد على مصطلح (رواية) وكفى، لأنه أعمق وأشمل، فهو يحتوي على

(الحكاية) مثلما يحتوي على (الخطاب) وفيه تقف على مكونات المادة التي جبل منها النص، كما تتعرف على طرائف تشكيله وأساليب أدائه، وهو الأهم في هذا المقام.

وهذا يعني أن الرواية كائنة ما كانت مادتها الحكاية تظل في أول الأمر وآخره رواية ولا غير، والانفعال بها والتفاعل معها ينبعان من كونها رواية وليس من كونها موصوفة بصفة ما مستمدة من طبيعة مادتها الحكائية ولا غير. وهو أمر يدركه من وعوا من أسرار الصنعه الروائية ما وعوا، على أن سواهم تقاصروا عن ذلك فمضوا يستفهمون عن وظيفة (التاريخ) في (الرواية)، وسهل عليهم أن يجمعوا بينهما ليكونا نمطاً روائياً اسمه الرواية التاريخية، وفاتهم أن تقنيات الجمال الأدبي كثيرة، يخلي الأديب عمله منها ما شاء له الإبداع والتفنن ويحلّي الأديب عمله بها ما شاء له الإبداع والتفنن، ومن تلك التقنيات ما يسمى (بالتناص) وصوره شتى، منها ما يكون جزئيا وقد تتنوع مظاهره في العمل الأدبي الواحد. ومنها ما يكون كلياً يشتمل على صورة تتمدد في أجزاء النص وتتنامى في إطار قوانين تشكله وقواعد بنائه وفي هذا تقييد ينفي قدرة النصوص السابقة على إلغاء كيان النص الجديد ونفي هويته الإبداعية، فيظل على سمته النوعية رواية أو قصيدة

أو قصة أو مسرحية أو ما شابه ذلك أو داناه، مهما تنوعت به التقنيات وتعددت وبذلك يغدو التاريخ نصاً تتشكل منه نصوص لها قوانينها التشكيلية وقواعدها البنائية، وليس من أمر يلزم بأن توصف تلك النصوص الجديدة بالتاريخية. أن للشاعر الحق أن يستلهم التاريخ، فهل توصف قصيدته بالتاريخية ؟ وكذلك للروائي الحق في استلهام التاريخ، فلم توصف روايته بالتاريخية؟

إن الخطاب التاريخي من حيث هو نص له هويته وخصائصه النوعية، لا يمنح الخطاب الروائي من حيث هو نص- هوية أو خصائص نوعية، ولكن «الخطاب التاريخي» يتراءى تقنية يشتمل عليها (الخطاب الروائي) وتتحكم فيها آلياتها وهي في مفهوم التناص آليتان، إحداهما هي الاستدعاء وثانيتهما هي (الانزياح) ولقد يتفق الروائيون عند مرحلة الاستدعاء لكنهم يتخالفون عند مرحلة الانزياح فمنهم من يقف عند حدود النص الأول فيكرره على نحو ما دون أن يضيف إليه بعداً جديداً ومنهم من يخرج على حدود النص الأول فيخالفه رؤية ويشكل منه صورة غير ما قد ألفت عنه، ومنهم من يتمايز عن النص الأول بفرادة فيضيف إليه أبعادا ليست له من قبل وفي كل الحالات يمنح جنس العمل الأدبي الخطاب التاريخي سمات لا

يعرفها، وما كان له أن يعرفها لأن لكل خطاب هويته، وقوانين تشكله وقواعد بنائه.

أفيصح لنا من بعد أن نصف (الرواية) بتناص مع التاريخ بأنها رواية تاريخية ؟ أم يحق لنا أن ننظر إليها على أنها رواية وكفى؟ وما استخدام التاريخ فيها إلاَّ تقنية من تقنيات الجمال الأدبي التي يتزين بها النص."

٨ - التناص الوثائقي :

وهذا النوع يأتي بكثرة في النثر كالسرد والسيرة، ومحاكاة النصوص الرسمية التي ترد في الخطابات، والرسائل الشخصية والإخوانية .

ومثال ذلك مانراه في السير الذاتية مثل :

- حياتي لأحمد أمين .
- الأيام لطه حسين .
- أنا لعباس العقاد .

يقول طه حسين في كتاب الأيام :

كان يجلس بين الطاعمين خجلاً وجلاً ، مضطرب النفس مضطرب حركة اليد ، لا يحسن أن يقتطع لقمته ، ولا يحسن أن يغمسها في الطبق ، ولا يحسن أن يبلغ بها فمه . ويخيل إلى نفسه أن

عيون القوم كلها تلحظه ، وأن عين الشيخ خاصة ترمقه خفية ، فيزيده هذا اضطراباً ، وإذا يده ترتعش ، وإذا بالعرق يتقاطر على ثوبه وهو يعرف ذلك ويألم له ولا يحسن أن يتقيه.

عَرفَت لنفسه إرادةٌ قوية ، ومن ذلك الوقت حرم على نفسه ألواناً من الطعام لم تبح له إلا أن جاوز الخامسة والعشرين ، حرم على نفسه الحساء والأرز وكل الألوان التي تؤكل بالملاعق لأنه كان يعرف أنه لا يحسن اصطناع الملعقة ، وكان يكره أن يضحك عليه إخوته ، أو تبكي أمه ، أو يعلمه أبوه في هدوء حزين.

ويقول :

عاد إلى سكونه وجموده في ركنه الذي اضطر إليه ، وقد أخذ النهار ينصرم والشمس تنحدر إلى مغربها وأخذ يتسرب إلى نفسه شعور شاحب هادئ حزين ، ثم يدعو مؤذن المغرب إلى الصلاة فيعرف الصبي أن الليل قد أقبل ، ويقدر في نفسه أن الظلمة قد أخذت تكتنفه ، ويقدر في نفسه أن لو كان معه في الغرفة بعض المبصرين لأضيء المصباح ليطرد هذه الظلمة المتكاثفة ، ولكنه وحيد لا حاجة له إلى المصباح فيما يظن المبصرون ، وإن كان ليراهم مخطئين في هذا الظن ، فقد كان في ذلك الوقت يفرق تفرقة غامضة بين الظلمة والنور.وكان

يجد في المصباح إذا أضيء جليساً له ومؤنساً . وكان يجد في الظلمة وحشة لعلها كانت تأتيه من عقله الناشئ ومن حسه المضطرب .. والغريب أنه كان يجد للظلمة صوتاً يبلغ أذنيه ، صوتاً متصلاً يشبه صوت البعوض لولا أنه غليظ ممتلئ وكان هذا الصوت يبلغ أذنيه فيؤذيهما ، ويبلغ قلبه فيملؤه روعاً ، وإذا هو مضطر إلى أن يغير جلسته فيجلس القرفصاء ويعتمد بمرفقيه على ركبتيه ويخفي رأسه بيديه ويسلم نفسه لهذا الصوت الذي يأخذه من كل مكان.

ويقول :

وسعى إلى مكان الامتحان في زاوية العميان خائفاً أشد الخوف مضطرباً أشد الاضطراب ، ولكنه لم يكد يدنو من الممتحنين حتى ذهب عنه الوجل فجأة ، وامتلأ قلبه حسرة وألماً ، وثارت في نفسه خواطر لاذعة لم ينسها قط ، فقط انتظر أن يفرغ الممتحنان من الطالب الذي كان أمامهما ، وإذا هو يسمع أحد الممتحنين يدعوه بهذه الجملة التي وقعت في أذنه ومن قلبه أسوأ وقع : (أقبل يا أعمى) ولولا أن أخاه أخذ بذراعه في غير رفق وقاده إلى الممتحنين في غير كلام لما صدق أن هذه دعوة قد سيقت إليه ، فقد كان تعود من أهله كثيراً من الرفق به

وتجنباً لذكر هذه الآفة بمحضرة ، وكان يقدر ذلك وإن كان لم ينس قط آفته ولم يُشغل قط عن ذكرها " .

ويقول أحمد أمين في سيرته الذاتية(حياتي):

في حجرة في هذا البيت ولدت. وكانت ولادتي في الساعة الخامسة صباحاً من أول أكتوبر سنة 1886، وكأن هذا التأريخ كان إرهاصا باني سأكون مدرساً فأول أكتوبر عادة بدء افتتاح الدراسة. وشاء الله أن أكون كذلك . فكنت مدرساً في مدرسة ابتدائية ، ثم في مدرسة ثانوية ثم في عالية ، وكنت مدرساً لبنين وبنات ، ومشايخ وأفندية ، وكنت رابع ولد وُلد. ولم يكن أبي يحب كثرة الأولاد شعوراً منه بالمسؤولية ، ولما لقي من الحزن العميق في وفاة أختى أبشع وفاة.

فقد كان لي أخت في الثانية عشرة من عمرها شاء أبي إلا تستمر في البيت من غير عمل فأرسلها إلى معلمة تتعلم عندها الخياطة والتفصيل والتطريز. وقامت يوماً بإعداد القهوة لضيوف المعلمة فهبت النار فيها واشتعل شعرها وجسمها وحاولت أن تطفيء نفسها أول الأمر فلم تنجح فصرخت ، ولكن لم يدركوها إلا وهي شعلة نار، ثم فارقت الحياة بعد ساعات. وكان ذلك وأنا حمل في بطن أمي . فتغذيت دماً حزيناً ورضعت بعد ولادتي لبناً حزيناً، واستقبلت عند

ولادتي استقبالاً حزيناً. فهل كان لذلك أثر فيما غلب علي من حزن، فلا أفرح كما يفرح الناس، ولا أبتهج بالحياة كما يبتهجون؟ ،علم ذلك عند الله والراسخين في العلم.

وكان من محاسن أسرتنا استقلالنا في المعيشة وفي البيت، فلا حماة ولا أقارب إلا أن يزوروا لماما، وكان بيتنا محكوماً بالسلطة الأبوية: فالأب وحده مالك زمام أموره، لا تخرج الأم إلا بإذنه، ولا يغيب الأولاد عن البيت بعد الغروب خوفا من ضربه، ومالية الأسرة كلها في يده يصرف منها كل يوم ما يشاء كما يشاء، وهو الذي يتحكم حتى فيما نأكل وما لا نأكل، يشعر شعوراً قوياً بواجبه نحو تعليم أولاده، فهو يعلمهم بنفسه ويشرف على تعليمهم في مدارسهم، سواء في ذلك أبناؤه وبناته، ويتعب في ذلك نفسه تعباً لا حد له، حتى لقد يكون مريضاً فلا يأبه بمرضه، ويتكيء على نفسه ليلقي علينا درسه. أما إيناسنا وإدخال السرور والبهجة علينا وحديثه اللطيف معنا فلا يلتفت إليه، ولا يرى أنه واجب عليه، يرحمنا ولكنه يخفي رحمته ويظهر قسوته، وتتجلى هذه الرحمة في المرض يصيب أحدنا، وفي الغيبة إذا عرضت لأحد منا، يعيش في شبه عزلة في دوره العالي، يأكل

وحده ويتعبد وحده ، وقلما يلقانا إلا ليقرئنا . أما أحاديثنا وفكاهتنا ولعبنا فمع أمنا .

وقد كان لنا جدة – هي أم أمنا – طيبة القلب شديدة التدين ، يضيء وجهها نوراً ، تزورنا من حين لآخر ، وتبيت عندنا فنفرح بلقائها وحسن حديثها ، وكانت تعرف من القصص الشعبية – الريفية منها والحضرية – الشيء الكثير الذي لا يفرغ ، فنتحلق حولها ونسمع حكاياتها ولا نزال كذلك حتى يغلبنا النوم، وهي قصص مفرحة أحيانا مرعبة أحيانا ، منها ما يدور حول سلطة القدر وغلبة الحظ ، ومنها ما يدور حول مكر النساء ودهائهن ، ومنها حول العفاريت وشيطنتها ، والملوك والعظماء وذلهم أمام القدر "الخ" ، وتتخلل هذه القصص الأمثال الشعبية اللطيفة والجمل التي يتركز عليها مغزى القصة .

ولكن كان بيتنا-على الجملة- جداً لا هزل فيه ، متحفظاً ليس فيه ضحك كثير ولا مرح كثير ، وذلك من جد أبي وعزلته وشدته ".

ويقول العقاد في كتاب (أنا):

" ولدت في أسوان يوم ٢٨ من يونيو ١٩٨٩ م ولي إخوة أشقاء فقد كان والدي متزوجا قبل والدتي ، ثم ماتت زوجته وبعدها تزوج امي.. وكبير أشقائي أحمد، وكان يعمل سكرتيرا لمحكمة أسوان ، وهو

الآن على المعاش ، وعبد اللطيف وهو تاجر ، ولي شقشقة واحدة نحبها جميعا ، وهي متزوجة تعيش في القاهرة إلى جواري ، أما إخوتي غير الأشقاء فهم جميعا أكبر مني سنا ، وبعضهم يعيش في القاهرة ، والبعض الآخر في أسوان .

بدأت حياتي الأدبية وأنا في التاسعة من عمري ، وكانت أول قصيدة نظمتها في حياتي هي قصيدة (مدح العلوم) وقلت فيها :

علم الحساب له مزايا جمة   وبه يزيد المرء في العرفان
والنحو قنطرة العلوم جميعها   ومبين غامضها وخير لسان
وكذلك الجغرافيا هادية الفتى   لمسالك البلدان والوديان
وإذا عرفت لسان قوم يافتى   نلت الأمان به وأي بيان

وتدرجت في المدارس ، ثم جئت إلى القاهرة للكشف الطبي عندما التحقت بإحدى الوظائف الحكومية عام ١٩٠٤ م وكان عمري إذ ذاك ١٥ سنة ، وكانت وظيفتي في مديرية قنا ، ولم تكن اللوائح تسمح بتثبيتي، لأنني لم أكن قد بلغت سن الرشد ، ثم نقلت إلى الزقازيق ، ثم كنت أول من كتب في الصحف يشكو الظلم الواقع على الموظفين ، ثم سئمت وظائف الحكومة ، وجئت إلى القاهرة وعملت بالصحافة ،

وأخيرا عينت عضوا بمجلس الفنون والآداب .. كما عينت بالمجمع اللغوي .

وفي فصل تال بعنوان (أبي) يقول العقاد :

هل يعرف أحد من أين لي باسم العقاد ؟ ....اما اسم العقاد فأذكر أن جدي لأبي كان من أبناء دمياط ، وكان يشتغل بصناعة الحرير ، ثم اقتضت مطالب العمل أن ينتقل إلى المحلة الكبرى حتى يتخذها مركزا لنشاطه ، ومن هنا أطلق عليه اسم العقاد أي الذي (يعقد) الحرير .. والتصقت بنا وأصبحت علما علينا .

وقد تعجب ان جدنا الأكبر من دمياط ، مع أن الجميع يعرفون أنني من أسوان.

وإني أتمثل أبي الآن في الصورة التي رايتها ألفي مرة بل أكثر من ألفي مرة ، لأنني كنت أراها كل يوم منذ فتحت عيني على الدنيا إلى أن فارقت بلدتي بعد اشتغالي بالوظائف الحكومية .

وتلك هي صورته على مصلاه يؤدي صلاة الصبح ، ويجلس على سجادة الصلاة مع مطلع الفجر إلى ما قبل الإفطار ليتلو سورا خاصة من القرآن الكريم ، ويعقبها بتلاوة الدعوات .

وكـان يـؤدي الصـلوات الخمـس في أوقاتهـا ، ولكـن جلسـته في الصـباح البـاكر هـي الـتي انطبعـت في ذاكرتـي إلى هـذه السـاعة ، لأنهـا كانت أول ما أستقبله من الدنيا كل صباح .

ومن أجل الصلاة حدث بيني وبينه خلاف يوصف بالعصيان .. فإنه - رحمه الله - كان يدين بالجد في الواجب أو الشدة في الجد ن وكـان يـرى للطفـل مـا يـراه الشيـخ إذا كـان الأمـر أمـر فريضـة أو عمـل محمود أو عرف مأثور.

من ذلك أنه كان يراني فيما دون الثامنة من عمري أجلس في المنزل بين قريباتي وخالاتي وجارات المنزل فيصيح بي مستغضبا :

- عباس ! ماذا تصنع هنا عند النساء ؟ تعال معي فاجلس بين أمثالك .. ومن هم أمثالي؟ .. شيوخ فيما بين الأربعين والسبعين، كـانوا يسمرون معه في(المندرة)ويقضون الوقت في أحاديث الشيوخ عن السياسة تارة وعن قضايا الأسر الكبيرة تارة أخرى، وقلمـا يمزحـون أو يتفكهـون إلا ثـابوا إلى وقـارهم كالمعتـذرين .. وقد أفادتني هذه الجلسات كل فائدة تأتي من التوقر قبل سن الوقار ، وقلما يخلو من بعض الأضرار ."

في هذه المقتطفات من السير الذاتية نلمس التناص في طريقة التناول ماثلة عندهم جميعا، حيث حرص كل كاتب على الحديث عن أسرته وتناول مكوناتها ، ومنزلته ومكانته بين أفرادها ،وما تتحلى به من تقاليد وعادات ، ويعطي طرفا من الحديث عن مسيرته التعليمية ، وما صادفه فيها من صعوبات وعقبات ، وما صادفه فيها من نجاح أو إخفاق .

- فهذا طه حسين يتحدث عن آفة فقد البصر التي مني بها في صغره ، وكيف أنها سببت له كثيرا من الحرج ، والألم النفسي حين كان يتناول الطعام مع إخوته وما كان يلقى من الحرج والعناء ، الأمر الذي دفعه في كبره إلى أن يأكل منفردا بعيدا عن أعين الرقباء ، والأهل والأقرباء ، ثم يحدثنا عن إحساسه بالوحدة والعزلة ، وأن هذه الآفة سببت له كثيرا من الوحدة ، كما يحدثنا عما كان يغمره من مشاعر الخوف والقلق عند دخول لجان الاختبار التي كانت تعقد للطلاب آنذاك ، وكيف أن مناداة المتحن له:(أقبل يا أعمى) قد سببت له ألما أي ألم !
- وهذا أحمد أمين يحدثنا عن أسرته وما فيها من حياة جادة ، لا هزل فيها ولا ضحك إلا في حدود ضيقة وما تسمح به جدتهم لهم

من خلال حكايات ترويها لهم من القصص الشعبية ، ويحدثنا عن والده الجاد دائما ، والمتحكم في شؤون المنزل وحده ، يصرف امـوره المالية والمعيشة ، ولا يسمح بتدخل أحد في مهامه ، ولا يجلس للحديث معهم إلا ليعلمهم فقط ، كما لا ينسى أحمد أمين يحدثنا عن أخته الكبيرة والحادث الذي وقع لها حيث شبت فيها النار عندما كانت تعد القهوة ، فسبب ذلك حزنا شديدا لأمه وأفراد أسرته ، فنشأ في جو حزين لا يعرف الفرح ولا الابتسام .

والعقاد أيضا يحدثنا عن أسرته ، وإخوته الأشقاء ، وكيف توزع أفراد عائلته بين دمياط والمحلة الكبرى وأسوان ، وسبب تسمية أسرته باسم العقاد ، كما يحدثنا عن موهبته الأدبية المبكرة وما نظم من شعر وهو في التاسعة من عمره، ويستفيض في الحديث عن صلاح والده وتقواه ، وحرصه الشديد على أداء الصلوات في أوقاتها، وما كان يتمتع به هذا الأب من جد ووقار ، وكيف أن العقاد قد اكتسب منه هذه الصفة في حياته .

وتستطيع أن تتبين التناص بين هؤلاء الكتاب جميعا من خلال طريقة تناول السيرة الذاتية ، حيث سلط كل منهم الضوء على أسرته

وأفرادها ، وعن والديه ويستفيض في إبراز سمات كل منهما ، ولو تتبعنا السيرة كاملة عنده جميعا لوجدنا مزيدا من التناص .

والتناص هنا فيهذين النموذجين نلمسه في اتفاق كلا الكاتبين في طريقة العرض ومن أنواع التناص أيضا:

٩ - تناص التراث الشعبي :

ويقصد به توظيف القص الشعبي، والحكايات القديمة، والموروث الشعبي بمعنى أن يستعين الشاعر بالموروث الشعبي ، وما يضمه من حكايات ، ويضمن فكرتها ، وأجزاءها في ما يكتب من قصائد ، وقد شاع هذا اللون من التناص كثيرا بين الشعراء المعاصرين ولنا أن نتأمل المثال التالي :

يقول توفيق زياد في قصيدة (رمضان كريم) (ص ٣٤٢)

وعلى حدة يجلس بعض السمار

يتمنون ويبنون

قصورا ..في الريح

ويقول فتى

آه .. لو عندي مصباح علاء الدين

لفركته حتى يأتي العملاق

قدامي يرتعش المسكين

طلبي متواضع : ألف جنيه صفراء
مهر لـ (سعاد) ساحرتي السمراء

ويقول خيالي آخر :

" آه لو أملك خاتم شبيك لبيك "
يأتي حين أشاء العفريت
(سعدك يا سيد بين يديك)
لقلبت الدنيا .. أوقدت جحيم
وقذفت إليه بكل لئيم
وجعلت الخبز بدون نقود
ورفعت لكل فقير قصرا
وزرعت الحرية في كل تراب
والورد على كل الأبواب

ففي هذا النموذج يستعين الشاعر بالحكاية الشعبية (مصباح علاء الدين) التي يعرفها الجميع وكيف أن العملاق الذي يخرج من المصباح يحقق للمرء ما يتمنى .

وهناك أيضا :

١٠ - التناص النقدي :

حتى كتب التراث النقدي نفسها لم تسلم من التناص ففي مجلة جذور في عددها رقم ثلاثين تتناول موضوعا تحت مسمى (التناص النقدي) عنون له كاتبه (عبد الحميد الحسامي) عنوانا هو (صدى الموازنة في المثل السائر) ، فتعال معي أيها القارىء المحترم نتجول عبر سطور هذا المقال نستعرض مافيه من تناص نقدي :

يبين كاتب المقال في بدايته أن كتاب المثل السائر يمثل قيمة نقدية كبيرة الوزن بين كتب التراث ، وذلك لما اشتمل عليه من أحكام نقدية ، فهو موسوعة كبرى تشكل نقلة فكرية في بنية التفكير النقدي نال بها صاحبها منزلة مرموقة في عالم الأدب والنقد ، وما يزال .

ويعترف ابن الأثير أنه قرأ كثيرا في كتب الأدب وموسوعاته (فلم يترك في تحصيله سبيلا إلا انتهجه) ثم نراه يقف في إجلال أمام كتابي :" الموازنة " للآمدي ، وكتاب " سر الفصاحة " لابن سنان الخفاجي ، حتى ليقول عنهما " وقد ألف الناس فيه – أي البيان – كتبا وجلبوا ذهبا ، وحطبوا حطبا ، وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه ، وعلمت غثه وسمينه ، فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا

كتـاب الموازنـة للآمـدي ، وكتـاب سـر الفصـاحة للخفـاجي ، غـير أن الموازنة أجمع أصولا ، وأجدى محصولا "

وابن الأثير في هذا القول يعطينـا انطباعـا عـن أثـر الكتـابين فيـه ، وأثرهمـا في كتاباتـه وآرائـه ، وهـذا مـا دفـع كاتـب المقـال (عبـد الحميـد الحسـامي) إلى تتبـع التنـاص الكـائن بـين الموازنـة والمثـل السـائر مـن خـلال ملاحظتـه الموضـوعات التي يشترك فيهـا الكتابـان والتنـاص في الفكرة أو البناء النصي أو طريقة المعالجة للموضوع .

ويطرح صاحب المقال سؤالا محوريا يبين إجابته فيما بعد ، يتساءل :

- ما ملامح تنـاص المثـل السـائر مـع الموازنـة ؟ ويوضـح سـؤاله أكثـر باستفسارات فرعية ؟

- هل تجسد التنـاص في المـادة العلميـة فقـط ؟ أو أنهـا طالـت المـادة والمنهج ؟وهـل اقتصـرت علـى المواضـع الـتي ذكرهـا ابـن الأثـير؟ أو انهـا تسللت إلى بنيـة الكتـاب فبرزت في مواضـع عديـدة ذكـر بعضها وأعرض عن بعض ؟

ويخلص الباحث إلى :

بيـان تنـاص المثل السائر مع الموازنة في عدد مـن الموضـوعات الـتي تنـاولها ابن الأثير ، وأبرزها :

١- موضوع المعاظلة :

يردد ابن الأثير قول قدامة ابن جعفر عنها أنها " مداخلة الكلام بعضه في بعض وركوب بعضه بعضا " ويقول عن هذا التعريف أنه خطأ، بل حقيقته التراكب من قولهم : تعاظلت الجرادتان إذا ركبت إحداهما الأخرى ، وهذا المثال الذي مثل به قدامة لا تراكب في ألفاظه ولا في معانيه " وابن الأثير لم يأت بجديد ، لأنه يردد ما قاله الآمدي صاحب الموازنة من قبل ، وعجيب الأمر أن ابن الأثير – كما يقول الباحث - يستنكف أن يعترف بالفضل للآمدي في التقدم والسبق في تناول أغلاط قدامة " .

٢- موضوع الجناس :

يقول ابن الأثير : " وقد أكثر أبو تمام من التجيس في شعره فمنه ما أغرب فيه فأحسن كالذي ذكرته ومنه ما اتى به كريها مستثقلا ، وذكر من جيده قوله :

يوم أرشق والهيجاء قد رشقت من المنية رشقا وابلا قصفا

ويقول ابن الأثير : " وله من الغث البارد المتكلف شيء كثير لا حاجة إلى استقصائه .."وانظر إلى ما قاله الآمدي لتعلم مدى التناص :

يقول الآمدي فيما أتى به أبو تمام من جناس :" فاعتمده (أي الجناس) الطائي (أبو تمام)وجعله غرضه ، وبنى أكثر شعره عليه ، فلو كان قلل منه واقتصر على مثل قوله :

ياربع لو ربعوا على ابن هموم

وأشباه هذا من الألفاظ المتجانسة المستعذبة اللائقة بالمعنى – لكان قد أتى على الغرض وتخلص من الهجنة والعيب .

فأما أن يقول :

قرت بقران عين الدين وانشترت   يالأشترين عيون الشرك فاصطلما

فإن انشتار عيون الشرك في غاية الغثاثة والقباحة ، وأيضا فإن انشتار العين ليس بموجب للاصطلام ....فهذا كله تجنيس في غاية البشاعة والركاكة والهجانة "

ثم يحدد الباحث موضع التناص :

فقول ابن الأثير (وله من الغث البارد المتكلف شيء كثير لا حاجة إلى استقصائه) يقابله قول الآمدي (فهذا كله تجنيس في غاية الشناعة والركاكة والهجانة) .

ويذكر الباحث من الأبواب التي تناص فيها ابن الأثير مع الآمدي :

٣- موضوع السرقات :

- يقول ابن الأثير " والصحيح أن باب الابتداع للمعاني مفتوح إلى يوم القيامة ومن الذي يحجر على الخواطر وهي قاذفة بما لا نهاية له .. لأن الخواطر تأتي به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأول ..وإنما يطلق اسم السرقة في معنى الخصوص كقول أبي تمام :

لا تنكروا ضربي له من دونه   مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره   مثلا من المشكاة والنبراس

فهذا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام وفي الموازنة يقول الآمدي :

" إن السرقة إنما هي في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر ' لا في المعاني المشتركة بين الناس التي هي جارية على عاداتهم ، ومستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم ، مما ترتفع الظنة فيه عن الذي يورده أن يقال : إنه أخذ من غيره "

- ويخلص الباحث إلى التناص بين الشيخين الجليلين قائلا :

" النصان يكادان يتطابقان من حيث النظرة إلى حدود السرقة فهي لدى الآمدي في المعاني المخترعة ، وهي كذلك عند ابن الأثير الذي تميز بتشقيق معاني السرقة ومصطلحاتها ، بل إن ابن الأثير يأخذ نص

الآمدي بحذافيره حين يقول : (إن السرق إنما هو في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر لا في المعاني المشتركة بين الناس التي هي جارية على عاداتهم المستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم " وهذا النص قد أورده ابن الأثير في " الاستدراك " وليس في المثل السائر.

صدى (الموازنة) واضح في (المثل السائر) وملموس في المعاظلة ، والتجنيس والمطابقة ، والسرقات ، وآلة البيان .

وملموس – أيضا – في طريقة المعالجة وتناول الأمثلة .

خاتمة

وبعد .. فهذا هو التناص - كما بينا - تعريفه ، وأنواعه ، ونماذجه ، وأن أجدادنا العرب وشيوخ النقد القدماء ، قد عالجوا مفهومه وأنواعه تحت مسمى السرقات الأدبية .

ونعود نكرر ما سبق أن ذكرناه في مقدمة الكتاب وبينا فيه فضل العرب وسبقهم في الحديث عن أخذ الشعراء من غيرهم ، وتأثرهم بالنصوص الأخرى ، وفصلوا القول في طرائق الأخذ والتأثر ، وما أطلقوا عليه من ألقاب السلخ والمسخ ، والإغارة ، والغصب ، وما شابه ذلك من مسميات أدرجها المعاصرون تحت مصطلح (التناص) ، وما أكثر ما غيروا في إطار الحداثة والافتتان بالغرب ومسمياته ، ونظرياته ، وفي تراثنا حقيقة كل شيء ، وعند أجدادنا وشيوخنا العرب اليقين ، وفي ثنايا ما أبدعوه أصول لكل ما يهب علينا من رياح الغرب ومصطلحاته ونظرياته ، فهل من عودة إلى كنوز هذا التراث؟ وهل من وقفة تأمل مستوعبة لكل ما تركه أجدادنا الفحول العظماء ؟ أسأل ، وأتمنى ..!

الفصل الرابع :

نماذج من نصوص متناصة

نستعرض بعض النماج الشعرية ، نستجلي منها التناص :

القصيدة الأولى:

رسالة في ليلة التنفيذ

هاشم الرفاعي

أبتـــاه مـــاذا قـــد يخـــطُّ بنـــاني والحبـــلُ والجـــلادُ ينتظـــراني
هذا الكتابُ إليـكَ مِـنْ زَنْزانَـةٍ مقْـــرورةٍ صَخْـــرِيَّة الجُـــدْرانِ
لَـمْ تَبْـقَ إلاَّ ليلـةٌ أحْيـا بهـا وأُحـــسُّ أنَّ ظلامَهـــا أكفـــاني
سَتَمُرُّ يا أبتـاهُ لسـتُ أشـكُّ في هـــذا وتَحمِـــلُ بعـــدَها جُثمـــاني
الليلُ مِـنْ حَـولي هُـدوءٌ قاتِـلٌ والـــذكرياتُ تَمـــورُ في وِجْـــداني
وَيَهُـدُّني أَلمـي فأنْشُـدُ راحَـتي في بِضْـعِ آيـاتٍ مِـنَ القُـرآنِ
والنَّفْسُ بـينَ جـوانحي شـفَّافةٌ دَبَّ الخُـوعُ بهـا فَهَـزَّ كَيـاني
قَدْ عِشْتُ أُومِنُ بالإلـهِ ولم أَذُقْ إلاَّ أخـــيراً لـــذَّةَ الإيمـــانِ
والصَّمتُ يقطعُهُ رَنـينُ سَلاسِـلٍ عَبَثَـتْ بِهِـنَّ أصـابعُ السَّـجّانِ
مـا بَـيْنَ آونـةٍ تَمُـرُّ وأختـها يرنـــو إليَّ بمقلـــتيْ شـــيطانِ
مِنْ كُوَّةٍ بالبابِ يَرْقُـبُ صَـيْدَهُ وَيَعُـودُ في أمْـنٍ إلى الـدَّوَرانِ
أنا لا أُحِسُّ بِـأيِّ حِقْـدٍ نَحْـوَهُ مـاذا جَنَـى فَتَمَسُّـه أضْـغاني؟
هُوَ طيِّبُ الأخلاقِ مثْلُكَ يـا أبي لم يَبْـدُ في ظَمَـأٍ إلى العُـدوانِ
لكنَّـهُ إنْ نـامَ عَنِّـي لَحظَـةً ذاقَ العَيـالُ مَـرارةَ الحِرْمـانِ

فَلَرُبَّما وهُوَ المُرَوِّعُ سحنةً ... لو كانَ مِثْلي شاعراً لَرَثاني
أوْ عادَ مَنْ يدري إلى أولادِهِ ... يَوماً وذكَّرَ صُورتي فبكاني
وَعلى الجِدارِ الصُّلبِ نافذةٌ بها ... معنى الحياةِ غليظةُ القُضْبانِ
قَدْ طالَما شارَفتُها مُتَأَمِّلاً ... في الثّائرينَ على الأسى اليَقْظانِ
فَأَرَى وُجوماً كالضَّبابِ مُصَوِّراً ... ما في قُلوبِ النَّاسِ مِنْ غَلَيانِ
نَفْسُ الشُّعورِ لَدى الجميعِ وَإِنْ هُمُو ... كَتموا وكانَ المَوْتُ في إعْلاني
وَيدورُ هَمْسٌ في الجَوانحِ ما الَّذي ... بالثَّوْرَةِ الحمْقاءِ قَدْ أَغْراني؟
أوَ لَمْ يَكُنْ خَيْراً لِنفسي أَنْ أُرَى ... مثلَ الجُموعِ أسيرُ في إذْعانِ؟
ما ضَرَّني لَوْ قَدْ سَكَتُّ وَكُلَّما ... غَلَبَ الأسى بالَغْتُ في الكِتْمانِ؟
هذا دَمِي سَيَسيلُ يَجْري مُطْفِئاً ... ما ثارَ في جَنْبَى مِنْ نيرانِ
وَفؤاديَ المَوَّارُ في نَبَضاتِهِ ... سَيَكُفُّ في غَدِهِ عنِ الْخَفقانِ
وَالظُّلْمُ باقٍ لَنْ يُحَطِّمَ قَيْدَهُ ... مَوْتي وَلَنْ يُودِي بهِ قُرْباني
وَيَسيرُ رَكْبُ الْبَغْيِ لَيْسَ يَضِيرُهُ ... شاةٌ إذا اجْتُثَّتْ مِنَ القِطْعانِ
هذا حَديثُ النَّفْسِ حينَ تَشُفُّ عَنْ ... بَشَرِيَّتي وَتَمُورُ بَعْدَ تَوانِ
وتقُولُ لي إنَّ الحَياةَ لِغايَةٍ ... أَسْمَى مِنَ التَّصْفيقِ للطُّغْيانِ
أَنْفاسُكَ الحَرَّى وَإِنْ هِيَ أُخْمِدَتْ ... سَتَظَلُّ تَعْمُرُ أُفْقَهُمْ بدُخانِ
وقُروحُ جِسْمِكَ وَهُوَ تحْتَ سِياطِهِمْ ... قَسَماتُ صُبْحٍ يَتَّقِيهِ الجاني
دَمْعُ السَّجينِ هُناكَ في أَغْلالِهِ ... وَدَمُ الشَّهيدِ هُنَا سَيَلْتَقِيانِ

حَتَّى إذا ما أُفْعِمَتْ بِهِما الرُّبا   لم يَبْقَ غَيْرُ تَمَرُّدِ الفَيَضانِ
ومِنَ الْعَواصِفِ مَا يَكُونُ هُبُوبُهَا   بَعْدَ الْهُدوءِ وَرَاحَةِ الرُّبَّانِ
إنَّ احْتِدامَ النَّارِ في جَوْفِ الثَّرَى   أَمْرٌ يُثيرُ حَفِيظَةَ الْبُرْكَانِ
وتتابُعُ القَطَراتِ يَنْزِلُ بَعْدَهُ   سَيْلٌ يَليهِ تَدَفُّقُ الطُّوفانِ
فَيَمُوجُ يقتلِعُ الطُّغاةَ مُزَمْجِراً   أقْوى مِنَ الْجَبَرُوتِ وَالسُّلْطانِ
أنا لَستُ أَدْري هَلْ سَتُذْكَرُ قِصَّتي   أَمْ سَوْفَ يَعْرُوها دُجَى النِّسْيانِ؟
أمْ أنَّني سَأكونُ في تاريخِنا   مُتَآمِراً أَمْ هَادِمَ الأوْثانِ؟
كُلُّ الَّذي أَدْريهِ أَنَّ تَجرُّعي   كَأْسَ الْمَذَلَّةِ لَيْسَ في إمْكاني
لَوْ لَمْ أَكُنْ في ثَوْرَتي مُتَطَلِّباً   غيْرَ الضِّياءِ لأُمَّتي لَكَفاني
أَهْوَى الْحياةَ كَرِيمَةً لا قَيْدَ لا   إرْهابَ لا اسْتِخْفافَ بالإنْسانِ
فَإذا سَقَطْتُ سَقَطْتُ أَحمِلُ عِزَّتي   يَغْلي دَمُ الأَحْرارِ في شِرياني
أَبَتاهُ إنْ طَلَعَ الصَّباحُ عَلَى الدُّنى   وَأَضاءَ نُورُ الشَّمْسِ كُلَّ مَكانِ
وَاسْتَقْبَلَ الْعُصْفُورُ بَيْنَ غُصُونِهِ   يَوْماً جَديداً مُشْرِقَ الأَلْوانِ
وَسَمِعْتَ أَنْغامَ التَّفاؤلِ ثَرَّةً   تَجْري عَلَى فَمِ بائِعِ الألبانِ
وَأتى يَدُقُّ- كما تَعَوَّدَ- بابَنا   سَيَدُقُّ بابَ السِّجْنِ جَلاَّدانِ
وَأَكُونُ بَعْدَ هُنَيْهَةٍ مُتَأَرْجِحاً   في الْحَبْلِ مَشْدُوداً إلى العِيدانِ
لِيَكُنْ عَزاؤكَ أَنَّ هَذا الْحَبْلَ ما   صَنَعَتْهُ في هذي الرُّبوعِ يَدانِ
نَسَجُوهُ في بَلَدٍ يَشُعُّ حَضَارَةً   وَتُضاءُ مِنْهُ مَشاعِلُ الْعِرفانِ

أَوْ هَكذا زَعَمُوا وَجِـيءَ بِـهِ إلى	بَلَدي الْجَريحِ عَلَى يَـدِ الأَعْـوانِ
أَنا لا أُريدُكَ أَنْ تَعيشَ مُحَطَّماً	في زَحْمَـةِ الآلامِ وَالأَشْـجانِ
إنَّ ابْنَـكَ المَصْـفُودَ في أَغْلالِـهِ	قَـدْ سِيقَ نَحْوَ الْمَوْتِ غَيْرَ مُدانِ
فَاذْكُرْ حِكاياتٍ بأَيّامِ الصِّبا	قَدْ قُلْتَها لي عَنْ هَـوى الأَوْطانِ
وَإذا سَمْعْتَ نَشيجَ أُمِّيَ في الدُّجى	تَبْكي شَباباً ضاعَ في الرَّيْعانِ
وتُكَـتِّمُ الحَسَراتِ في أَعْماقِهـا	أَلَمـاً تُواريـهِ عَـنِ الجِـيرانِ
فَاطْلُبْ إليها الصَّفْحَ عَنِّي إنَّني	لا أَبْتَغي مِنَها سِوى الغُفْرانِ
مازَالَ في سَمْعي رَنـينُ حَديثِها	وَمقالِهـا في رَحْمَـةٍ وَحنـانِ
أَبُنَيَّ: إنِّي قـد غَـدَوْتُ عليلـةً	لم يبقَ لي جَلَـدٌ عَلى الأَحْـزانِ
فَأَذِقْ فُؤادِيَ فَرْحَةً بالْبَحْثِ عَـنْ	بِنْتِ الحَلالِ وَدَعْكَ مِنْ عِصْياني
كانَـتْ لهـا أُمْنِيَـةً رَيّانَـةً	يـا حُسْـنَ آمـالٍ لَهـا وَأَماني
وَالآنَ لا أَدْري بِـأَيِّ جَـوانحٍ	سَتَبيتُ بَعْـدي أَمْ بِـأَيِّ جنـانِ
هذا الذي سَـطَرْتُهُ لَـكَ يـا أبي	بَعْضُ الذي يَجْري بِفِكْـرٍ عـانِ
لكنْ إذا انْتَصَرَ الضِّياءُ وَمُزِّقَتْ	بَيَدِ الْجُمـوعِ شَـريعةُ القُرْصـانِ
فَلَسَوْفَ يَذْكُرُني وَيُكْبِرُ هِمَّتي	مَنْ كانَ في بَلَدي حَليفَ هَـوانِ
وَإلى لِقـاءٍ تَحْـتَ ظِـلِّ عَدالَـةٍ	قُدْسِـيَّةِ الأَحْكـامِ والمِيـزانِ

****

القصيدة الثانية :

رسالة من المعتقل
سميح القاسم

"ليس لديَّ ورق ولا قلم.

لكنني... من شدّة الحرِّ، من البق..

ومن مرارة الألم يا أصدقائي لم أنم.

فقلت ماذا لو تسامرت مع الأشعار

وزارني من كوَّة الزنزانة السوداء لا تستخفّوا...

زارني وطواط وراح في نشاط يقبّل الجدران في زنزانتي السوداء.

وقلت يا الجريء في الزوّار .

حدِّث!.. أما لديك عن عالمنا أخبار؟!

فإنني يا سيدي، من مدّة لم أقرأ الصحف هنا.

لم أسمع الأخبار.

حدّث عن الدنيا، عن الأهل، عن الأحباب لكنه بلا جواب!

صفّقَ بالأجنحة السوداء عبر كوَّتي ...

وطار!

وصحت: يا الغريب في الزوار.

مهلاً !

ألا تحمل أنبائي إلى الأصحاب؟ ..

***

من شدة الحر من البق من الألم يآ أصدقآئي لم أنم

و الحارس المسكين،

ما زال وراء الباب ما زال..

في رتابةٍ يُنَقّل القدم

مثليَ لم ينم كأنّه مثليَ، محكوم بلا أسباب!

أسندت ظهري للجدآر ... مهدمآ

و غصت ... في دوآمة بلآ قرآر

والتهبت في جبهتي الأفكآر..

***

أماه! كم يحزنني أنك من أجلي في ليل من العذاب

تبكين في صمت متى يعود من شغلهم إخوتي الأحباب،

وتعجزين عن تناول الطعام ومقعدي خالٍ..

فلا ضحكٌ ...

ولا كلام.

أماه! كم يؤلمني!

أنك تجشهين بالبكاء إذا أتى يسألكم عني الأصحاب .

لكنني.. أومن يا أماه!

أومن أن روعة الحياة تولد في معتقلي،

أومن أن زائري الأخير.. لن يكون خفّاش ليل.. مُدْلِجاً بلا عيون.

لا بد... أن يزورني النهار

وينحني السجان في انبهار ويرتمي ...

ويرتمي معتقلي مهدماً... لهيبه النهار." !!

هاتان قصيدتان بينهما تناص نلمحه فيما يلي :

١- قصيدة هاشم الرفاعي المولود عام ١٩٣٥ ، يتحدث فيها عن أحاسيسه في ليلة الحكم عليه بالإعدام .

٢- وقصيدة سميح القاسم المولود عام ١٩٢٩ يتحدث أيضا عن أحاسيسه من داخل الاعتقال .

٣- كثير من أبيات هاشم الرفاعي يتشابه مع ما كتب سميح القاسم مثل :

● يقول هاشم الرفاعي مصورا وحشة السجن الذي أرد فيه وحيدا :

هذا الكتابُ إليـكَ مِـنْ زَنْزانَـةٍ مقْـرورَةٍ صَخْـرِيَّة الجُـدْرانِ

لَـمْ تَبْـقَ إلاَّ ليلـةٌ أحْيـا بِهـا وأُحِـسُّ أنَّ ظلامَهـا أكفـاني

ويقول سميح في المضمون نفسه مصورا كآبة السجن وما فيه من وحشة وألم :

فقلت ماذا لو تسامرت مع الأشعار

وزارني من كوّة الزنزانة السوداء لا تستخفّوا...

زارني وطواط وراح في نشاط يقبّل الجدران في زنزانتي السوداء.

وقلت يا الجريء في الزوّار .

حدِّث!.. أما لديك عن عالمنا أخبار؟!

فإنني يا سيدي، من مدّة لم أقرأ الصحف هنا.

لم أسمع الأخبار.

● يقول هاشم الرفاعي مصورا حارس السجن ومشاعره نحوه ، وأنه إنسان مثله ، لكنه ينفذ ما يلقى إليه من أوامر وتعليمات :

والصَّمتُ يقطعُهُ رَنينُ سَلاسِلٍ — عَبَثَتْ بِهِنَّ أَصابعُ السَّجّانِ

ما بَيْنَ آونةٍ تَمُرُّ وأختها — يرنو إليَّ بمقلتيْ شيطانِ

مِنْ كُوَّةٍ بالبابِ يَرْقُبُ صَيْدَهُ — وَيَعُودُ في أَمْنٍ إلى الدَّوَرَانِ

أنا لا أُحِسُّ بِأيِّ حِقْدٍ نَحْوَهُ — ماذا جَنَى فَتَمَسُّه أضْغاني؟

هُوَ طيِّبُ الأخلاقِ مثْلُكَ يا أبي — لم يَبْدُ في ظَمَأٍ إلى العُدوانِ

لكنَّهُ إنْ نامَ عَنِّي لَحظةً — ذاقَ العَيالُ مَرارةَ الحِرْمانِ

فلَرُبَّما وهُوَ المُرَوِّعُ سحنةً — لوكانَ مِثْلي شاعراً لَرَثاني

أوْ عادَ مَنْ يدري إلى أولادِهِ — يَوماً وذكَّرَ صُورتي فَبكاني

وفي المعنى نفسه يقول سميح القاسم :

و الحارس المسكين،
ما زال وراء الباب ما زال..
في رتابةٍ يُنَقّل القدم
مثليَ لم ينم كأنّه مثليَ، محكوم بلا أسباب!
أسندت ظهري للجدآر ... مهدمآ
و غصت ... في دوآمة بلآ قرآر
والتهبت في جبهتي الأفكآر..

● ومن بين جدران السجن يتحدث هاشم إلى أمه مبينا مشاعرها وكيف ستبيت في بعد ابنها المسجون عنها :

وَإذا سَمْعْتَ نَشيج أُمِّيَ في الدُّجى ... تَبْكي شَباباً ضاعَ في الرَّيْعانِ
وتُكَتِّمُ الحَسراتِ في أعْماقِها ... أَلَماً تُواريهِ عَنِ الجِيرانِ
فَاطْلُبْ إليها الصَّفْحَ عَنِّي إنَّني ... لا أَبْتَغي مِنَها سِوى الغُفْرانِ
مازَالَ في سَمْعي رَنينُ حَديثِها ... وَمقالِها في رَحْمَةٍ وَحنانِ
أَبُنَيَّ: إنِّي قد غَدَوْتُ عليلةً ... لم يبقَ لي جَلَدٌ عَلى الأَحْزانِ
فَأَذِقْ فُؤادِيَ فَرْحَةً بالْبَحْثِ عَنْ ... بِنْتِ الحَلالِ وَدَعْكَ مِنْ عِصْياني
كانَتْ لها أُمْنِيَةٌ رَيَّانَةٌ ... يا حُسْنَ آمالٍ لَها وَأَماني
وَالآنَ لا أدْري بِأَيِّ جَوانِحٍ ... سَتَبيتُ بَعدي أَمْ بِأَيِّ جنانِ

وفي الإطار نفسه يبين سميح القاسم مشاعر أمه الوالهة حين يسأل عنه الصحاب وهو هناك قيد السجن والاعتقال :

أماه! كم يؤلمني!

أنك تجشهين بالبكاء إذا أتى يسألكم عني الأصحاب .

لكنني.. أومن يا أماه!

أومن أن روعة الحياة تولد في معتقلي،

****

هكذا يبدو التناص والتأثر بين كل من الشاعرين واضحا ملموسا في المضمون والفكر الجزئية ، مع اختلاف الصياغة ، فقصيدة الرفاعي عمودية بينما قصيدة سميح من شعر التفعيلة .

وهذان نموذجان آخران :

النص الأول

فتح عمورية
أبو تمام

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعةً ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذب
تخرصاً وأكاذيباً ملفقة ... ليست بنبعٍ إذا عدت ولا غرب
عجائباً زعموا الأيام مجفلةً ... عنهن في صفر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمةٍ ... إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الأبراج العليا مرتبة ... ما كان منقلباً أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلةٌ ... ما دار في فلكٍ وفي قطب
لو بنيت قط أمراً قبل موقعه ... لم تخف ما حل بالأوثان والصلب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلاً متسولة الحلب
أبقيت جد بني الإسلام في صعدٍ ... والمشركين ودار الشرك في صبب

أتتهم الكربة السوداء سادرةً ... منها وكان اسمها فراجة الكرب
جرى لها الفأل برحاً يوم أنقرةٍ ... إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
بسنة السيف، والحناء من دمه ... لا سنة الدين والإسلام مختضب
لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يشله وسطها صبحٌ من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها وكأن الشمس لم تغب
ضوءٌ من النار والظلماء عاكفةٌ ... وظلمةٌ من دخانٍ في ضحىً شحب
لو يعلم الكفر كم من أعصرٍ كمنت ... له العواقب بين السمر والقضب
تدبير معتصمٍ بالله منتقمٍ ... لله مرتقبٍ في الله مرتغب
ومطعم النصر لم تكهم أسنته ... يوماً ولا حجبت عن روح محتجب
لم يغز قوماً ولم ينهد إلى بلدٍ ... إلا تقدمه جيشٌ من الرعب
لو لم يقد جحفلاً يوم الوغى لغدا ... من نفسه وحدها في جحفلٍ لجب
رمى بك الله برجيها فهدمها ... ولو رمى بك غير الله لم يصب
حتى تركت عمود الشرك منقعراً ... ولم تعرج على الأوتاد والطنب
إن الأسود، أسود الغاب همتها ... يوم الكريهة في المسلوب لا السلب
ولى وقد ألجم الخطي منطقه ... بسكتةٍ تحتها الأحشاء في صخب
يارب حوباء لما اجتث دابرهم ... طابت ولو ضمخت بالمسك لم تطب

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسرٍ من التعب

إن كان بين صروف الدهر من رحم موصولةٍ أو ذمامٍ غير منقضب

فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدرٍ أقرب النسب

أبقت بني الأصفر الممراض كاسمهم صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

وانظر إلى البردوني الشاعر اليمني في عصرنا الحديث وكيف تناص مع المتنبي في قصيدته التي قالها في فتح عمورية قديما ؟ ، وكيف كان سيف المتنبي ، وكيف صور السيف في عصرنا الحاضر ؟ ، وكيف كان العرب قديما ، وكيف صار حالهم اليوم ؟

ما أصدق السيف
عبد الله البردوني

مَا أَصْدَقَ السَّيْفَ! إِنْ لَمْ يُنْضِهِ الكَذِبُ
وَأَكْذَبَ السَّيْفَ إِنْ لَمْ يَصْدُقِ الغَضَبُ

بِيضُ الصَّفَائِحِ أَهْدَى حِينَ تَحْمِلُهَا
أَيْدٍ إِذَا غَلَبَتْ يَعْلُو بِهَا الغَلَبُ

وَأَقْبَحَ النَّصْرِ.. نَصْرُ الأَقْوِيَاءِ بِلاَ
فَهْمٍ. سِوَى فَهْمِ كَمْ بَاعُوا وَكَمْ كَسَبُوا

أَدْهَى مِنَ الجَهْلِ عِلْمٌ يَطْمَئِنُّ إِلَى
أَنْصَافِ نَاسٍ طَغَوا بِالعِلْمِ وَاغْتَصَبُوا

قَالُوا: هُمُ البَشَرُ الأَرْقَى وَمَا أَكَلُوا
شَيْئاً .. كَمَا أَكَلُوا الإِنْسَانَ أَوْ شَرِبُوا

مَاذَا جَرَى.. يَا أَبَا تَمَّامَ تَسْأَلُنِي؟
عَفْواً سَأَرْوِي ..وَلا تَسْأَلْ .. وَمَا السَّبَبُ

يَدْمَى السُّؤَالُ حَيَاءً حِينَ نَسْأَلُهُ
كَيْفَ احْتَفَتْ بِالعِدَى «حَيْفَا» أَوِ «النَّقبُ»

مَنْ ذَا يُلَبِّي ؟ أَمَا إِصْرَارُ مُعْتَصِمِ ؟
كَلاَّ وَأَخْزَى مِنَ « الأَفْشِينَ » مَا صُلِبوا

اليَوْمَ عَادَتْ عُلُوجُ «الرُّومِ» فَاتِحَةً
وَمَوْطِنُ العَرَبِ المَسْلُوبُ وَالسَّلَبُ

مَاذَا فَعَلْنَا؟ غَضِبْنَا كَالرِّجَالِ وَلَمْ
نصدُق وَقَدْ صَدَقَ التَّنْجِيمُ وَالكُتُبُ

وَقَاتَلَتْ دُونَنَا الأَبْوَاقُ صَامِدَةً
أَمَّا الرِّجَالُ فَمَاتُوا... ثَمَّ أَوْ هَرَبُوا

حُكَّامُنَا إِنْ تَصَدّوا لِلْحِمَى اقْتَحَمُوا
وَإِنْ تَصَدَّى لَهُ المُسْتَعْمِرُ انْسَحَبُوا

هُمْ يَفْرُشُونَ لِجَيْشِ الغَزْوِ أَعْيُنَهُمْ
وَيَدَّعُونَ وُثُوباً قَبْلَ أَنْ يَثِبُوا

الحَاكِمُونَ و«وَاشُنْطُنْ» حُكُومَتُهُمْ
وَاللامِعُونَ .. وَمَا شَعَّوا وَلا غَرَبُوا

القَاتِلُونَ نُبُوغَ الشَّعْبِ تَرْضِيَةً
لِلْمُعْتَدِينَ وَمَا أَجْدَتْهُمُ القُرَبُ

لَهُمْ شُمُوخُ «الْمُثَنَّى» ظَاهِراً وَلَهُمْ
هَوَىً إِلَى» بَابَك الخَرْمِيّ» يُنْتَسبُ

مَاذَا تَرَى يَا «أَبَا تَمَّامَ» هَلْ كَذَبَتْ
أَحْسَابُنَا؟ أَوْ تَنَاسَى عِرْقَهُ الذَّهَبُ؟

عُرُوبَةُ اليَوْمِ أُخْرَى لا يَنِمُّ عَلَى
وُجُودِهَا اسْمٌ وَلا لَوْنٌ وَلا لَقَبُ

تِسْعُونَ أَلْفاً » لِعَمُّورِيَّةَ » اتَّقَدُوا
وَلِلْمُنَجِّمِ قَالُوا: إِنَّنَاالشُّهُبُ

قِيلَ: انْتِظَارَ قِطَافِ الكَرْمِ مَا انْتَظَرُوا
نُضْجَ العَنَاقِيدِ لَكِنْ قَبْلَهَا الْتَهَبُوا

وَاليَــوْمَ تِسْعُــونَ مِلْيونَــاً وَمَــا بَلَغُـــوا
نُضْجَــاً وَقَدْ عُصِــرَ الزَّيْتُــونُ وَالعِنَـــبُ

تَنْسَى الرُّؤُوسُ العَوَالِــي نَــارَ نَخْوَتِهَـــا
إِذَاامْتَطَاهَــا إِلَــى أَسْـيَـــادِهِ الــذَّنَـــبُ

»حَبيبُ« وَافَيْتُ مِــنْ صَنْعَــاءَ يَحْمِلُنِــي
نَسْرٌ وَخَلْفَ ضُلُوعِــي يَلْهَــثُ العَــرَبُ

مَاذَا أُحَدِّثُ عَــنْ صَنْعَــاءَ يَــا أَبَتِـــي ؟
مَلِيحَــةٌ عَاشِقَاهَــا : السِّــلُّ وَالــجَـرَبُ

مَاتَــتْ بِصُنْــدُوقِ «وَضَّاحٍ» بِــلاَثَمَـــنٍ
وَلَمْ يَمُتْ فِي حَشَاهَا العِشْــقُ وَالطَّــرَبُ

كَانَتْ تُرَاقِبُ صُبْــحَ البَعْــثِ فَانْبَعَثَـــتْ
فِي الحُلْمِ ثُمَّ ارْتَمَــتْ تَغْفُــو وَتَرْتَقِـــبُ

لَكِنَّهَا رُغْمَ بُخْــلِ الغَيْــثِ مَــابَرِحَـــتْ
حُبْلَى وَفِي بَطْنِهَــا«قَحْطَــانُ»أَوْ» كَرَبُ«

وَفِـي أَسَـى مُقْلَتَيْهَـــا يَغْتَلِـــي يَمَـــنٌ
ثَانٍ كَحُلْـمِ الصِّبَـا ...يَنْـأى وَيَقْتَـــرِبُ

»حَبِيبُ« تَسْأَلُ عَنْ حَالِي وَكَيْـفَ أَنَـا؟
شُبَّابَـةٌ فِـي شِفَـاهِ الرِّيـحِ تَنْتَـحِـبُ

كَانَتْ بِلاَدُكَ «رِحْلاً»، ظَهْـرَ» نَاجِيَـةٍ«
أَمَّـا بِـلاَدِي فَـلاَ ظَهْــرٌ وَلاَ غَـبَـبُ

أَرْعَيْـتَ كُـلَّ جَدِيـبٍ لَحْـمَ رَاحِلَـةٍ
كَانَتْ رَعَتْـهُ وَمَـاءُ الـرَّوْضِ يَنْسَكِـبُ

وَرُحْتَ مِنْ سَفَـرٍ مُضْـنٍ إِلَـى سَفَــرٍ
أَضْنَـى لأَنَّ طَرِيـقَ الرَّاحَــةِ التَّـعَــبُ

لَكِنْ أَنَا رَاحِلٌ فِـي غَيْـرِ مَـا سَـفَرٍ ...
رحلي دمي وَطَرِيقِي الجَمْـرُ وَالحَطَـــبُ
إِذَا امْتَطَيْـتَ رِكَابَـاً لِلـنَّـوَى فَـأَنَــا
فِي دَاخِلِي ... أَمْتَطِـي نَـارِي وَاغْتَـرِبُ

قَبْرِي وَمَأْسَاةُ مِيلَادِي عَلَى كَتِفِي
وَحَوْلِيَ العَدَمُ المَنْفُوخُ وَالصَّخَبُ

»حَبِيبُ» هَذَا صَدَاكَ اليَوْمَ أَنْشُدُهُ
لَكِنْ لِمَاذَا تَرَى وَجْهِي وَتَكْتَئِبُ؟

مَاذَا ؟ أَتَعْجَبُ مِنْ شَيْبِي عَلَى صِغَرِي؟
إِنِّي وُلِدْتُ عَجُوزاً .. كَيْفَ تَعْتَجِبُ؟

وَاليَوْمَ أَذْوِي وَطَيْشُ الفَنِّ يَعْزِفُنِي
وَالأَرْبَعُونَ عَلَى خَدَّيَّ تَلْتَهِبُ

كَذَا إِذَا ابْيَضَّ إِينَاعُ الحَيَاةِ عَلَى
وَجْهِ الأَدِيبِ أَضَاءَ الفِكْرُ وَالأَدَبُ

*****

وَأَنْتَ مَنْ شِبْتَ قَبْلَ الأَرْبَعِينَ عَلَى
نَارِ «الحَمَاسَةِ « تَجْلُوهَا وَتَنْتَحِبُ
وَتَجْتَدِي كُلَّ لِصٍّ مُتْرَفٍ هِبَةً
وَأَنْتَ تُعْطِيهِ شِعْراً فَوْقَ مَا يَهِبُ

شَرَّقتَ غَرَّبْتَ مِنْ «وَالٍ» إِلَـى» مَلكٍ«
يَحُثُّـكَ الفَقْـرُ ... أَوْيَقْتَـادُكَ الطَّلَـبُ

طَوَّفْتَ حَتَّى وَصَلْتَ » الموصِلِ « انْطَفَـأَتْ
فِيـكَ الأَمَانِـي وَلَـمْ يَشْبَـعْ لَهَـا أَرَبُ

لَكِـنَّ مَـوْتَ الُمجِيـدِ الفَـذِّ يَـبْـدَأه
وِلادَةً مِـنْ صِبَاهَـا تَرْضَـعُ الحِقَـبُ

* * * * *

»حَبِيبُ» مَـا زَالَ فِـي عَيْنَيْـكَ أَسْئِلَـةً
تَبْـدُو... وَتَنْسَـى حِكَايَاهَـا فَتَنْتَـقِـبُ

وَمَاتَـزَالُ بِحَلْقِـي أَلْـــفُ مُبْكِـيَـةٍ
مِنْ رُهْبَـةِ البَوْحِ تَسْتَحْيِـي وَتَضْطَـرِبُ

يَكْفِيـكَ أَنَّ عِدَانَـا أَهْـدَرُوادَمَـنَـا
وَنَحْـنُ مِـنْ دَمِنَـا نَحْسُـو وَنَحْتَلِـبُ
سَحَائِـبُ الغَـزْوِ تَشْوِينَـا وَتَحْجُبُـنَـا
يَوْماً سَتَحْبَلُ مِـنْ إِرْعَادِنَـا السُّحُـبُ؟

أَلاَ تَـرَى يَـا أَبَـا تَمَّـامَ بَارِقَـنَـا

إِنَّ السَّمَـاءَ تُرَجَّـى حِيـنَ تُحْتَجَـبُ

وهذا تناص بين شاعرين من العصر الحديث ، كلاهما يتناول المجد العربي الداثر في الأندلس ، كلاهما يتسلل إلى الحديث عنه من خلال وصف لفتاة عربية أندلسية :

تعال معي نتأمل النصين :-

غرناطة

نزار قباني

في مدخل الحمراء كان لقاؤنا
ما أطيب اللقيا بلا ميعاد
عينان سوداوان في جحريهما
تتوالد الأبعاد من أبعاد
هل أنت إسبانية؟ ساءلتها
قالت: وفي غرناطة ميلادي
غرناطة؟ وصحت قرون سبعة
في تينك العينين.. بعد رقاد
وأمية راياتها مرفوعة
وجيادها موصولة بجياد
ما أغرب التاريخ كيف أعادني
لحفيدة سمراء من أحفادي
وجه دمشقي رأيت خلاله
أجفان بلقيس وجيد سعاد
ورأيت منزلنا القديم وحجرة

كانت بها أمي تمد وسادي
والياسمينة رصعت بنجومها
والبركة الذهبية الإنشاد
ودمشق، أين تكون؟ قلت ترينها
في شعرك المنساب ..نهر سواد
في وجهك العربي، في الثغر الذي
ما زال مختزناً شموس بلادي
في طيب "جنات العريف" ومائها
في الفل، في الريحان، في الكباد
سارت معي.. والشعر يلهث خلفها
كسنابل تركت بغير حصاد
يتألق القرط الطويل بجيدها
مثل الشموع بليلة الميلاد ..
ومشيت مثل الطفل خلف دليلتي
وورائي التاريخ كوم رماد
الزخرفات.. أكاد أسمع نبضها
والزركشات على السقوف تنادي
قالت: هنا "الحمراء" زهو جدودنا

فاقـــرأ علـــى جـــدرانها أمجـــادي

أمجادهـــا؟ ومســـحت جرحـــاً نـــازفاً

ومســـحت جرحـــاً ثانيـــاً بفـــؤادي

يا ليـــت وارثـــي الجمـــيلة أدركـــت

أن الـــذين عـنتـــهم أجـــدادي

عانـــقت فيهـــا عنـــدما ودعتـــها

رجلاً يسمـــى "طـــارق بـــن زيـــاد"

تامل نص نزار ، ثم تامل هذا النص:

وثبتْ تستقرب النجم مجالا..

عمر أبو ريشة

وقد قالها على لسان الفتاة الإسبانية التي تعتزّ بأصلها العربي ولم تكن تعرفُ جنسيّةَ مَنْ تحدّث :

يقول :

وثبتْ تستقرب النجم مجالا
وتهادت تسحب الذيل اختيالا
وحيالي غادة تلعب في
شعرها المائج غنجا ودلالا
طلعة ريا وشيء باهر
أجمال جل ان يسمى جمالا
فتبسمت لها فابتسمت
وأجالت في ألحاظا كسالى
وتجاذبنا الأحاديث فما
انخفضت حسا ولا سفت خيالا
كل حرف زل عن مرشفها
نثر الطيب يمينا وشمالا
قلت يا حسناء مَنْ أنت
ومن أي دوح أفرع الغصن وطالا

فرنــــت شـــامخة احســـبها
فـــوق انســـاب البرايـــا تتعـــالى

وأجابــــت أنـــا مـــن أنـــدلس
جنـــة الـــدنيا ســـهولا وجبـــالا

وجـــدودي المـــح الـــدهر علـــى
ذكـــرهم يطـــوي جناحيـــه جـــلالا

بوركـــت صـــحراؤهم كـــم زخـــرت
بـــالمروءات رياحـــا ورمـــالا

حملـــوا الشـــرق ســـناء وســـنى
وتخطـــوا ملعـــب الغـــرب نضـــالا

فنمـــا المجـــد علـــى آثـــارهم
وتخطـــى بعـــدما زالـــوا الـــزوالا

هـــؤلاء الصـــيد قـــومي فانتســـب
إن تجـــد أكـــرم مـــن قـــومي رجـــالا

أطـــرق الطـــرف و غامـــت أعـــيني
برؤاهـــا وتجاهلـــت الســـؤالا

وهذه نصوص متناصة في الرثاء، كل شاعر يصف زوجته، ويصور مشاعره نحوها وما تركته من فراغ مؤثر في حياته .

النص الأول :لولاَ الحَيَاء جرير

لـــولا الحيـــاء لهـــاجني اســـتعبار
ولـــزرت قـــبرك والحبيـــب يـــزار

ولقـــد نظـــرت، ومـــا تمتـــع نظـــرة
في اللحـــد، حيـــث تمكـــن المحفـــار

فجـــزاك ربـــك في عشـــيرك رحمـــة
وســـقى صـــداك مجلجـــل مـــدرار

ولهـــت قلـــبي، اذ علـــتني كـــبرة
وذوو التمـــائم مـــن بنيـــك صـــغار

أرعـــى النجـــوم وقـــد مضـــت غوريـــة
عصـــب النجـــوم كـــأنهن صـــوار

نعـــم القـــرين وكنـــت علـــق مضـــنة
وأرى بنعـــف بليـــة الأحجـــار

عمــرت مكرمـــة المســاك وفارقـــت
مـــا مســـها صـــلف ولا إقتـــار

فسقى صـدى جـدث ببرقـة ضـاحك
هـــزم، أجـــش، وديمـــة مـــدرار

متراكـــب، زجـــل يضـــيء وميضـــه
كـــالبلق تحـــت بطونهـــا الأمهـــار

كانـــت مكرمـــة العشـــير ولم يكـــن
يخشـــى غوائـــل أم حـــرزة جـــار

ولقـــد أراك كســـيت أجمـــل منظـــر
ومـــع الجمـــال ســـكينة ووقـــار

والـــروح طيبـــة إذا اســـتقبلتها
والعـــرض لا دنـــس ولا خـــوار

وإذ سريت رأيت نارك نورت
وجها أغر يزينه الإسفار

صلى الملائكة الذين تخيروا
والصالحون عليك والأبرار

وعليك من صلوات ربك كلما
نصب الحجيج ملبدين وغاروا

يا نظرة لك يوم هاجت عبرة
من أم حرزة بالنميرة دار

تحيي الروامس ربعها فتجدّه
بعد البلى، وتميته الأمطار

وكأن منزلة لها بجلاجل،
وحي الزبور، تجدّه الأحبار

لا تكثـــرن إذا جعلـــت تلـــومني،
لا يـــذهبن بحلمـــك الإكثـــار

كـــان الخليط هـــم الخلـــيط فأصـــبحوا
متبـــدلين، وبالـــديار ديـــار

لا يلبـــث القرنـــاء أن يتفرقـــوا
ليـــل يكـــر علـــيهم ونهـــار

كانـــت إذا هجـــر الحليـــل فراشـــها
خـــزن الحـــديث وعفـــت الأســـرار

القصيدة الثانية
دالية محمود سامي البارودي

في رثـاء زوجتـه يعـبر بهـا الشـاعر عـن معانـاةٍ مؤلمـة وقـد قـال قصيدته بعـد أن بلغـه وهـو منفـاه في سـيلان (سـرنديب) نبـأ وفـاة زوجتـه (عديلـة بنـت أحمـد يَكَـن باشـا) في مصـر وكانـت السـلطات الإنجليزية قد نفتـه إلى هذه الجزيـرة مع أحمد عرابي وأربعة من قـادة الثورة العرابية بعد إخفاقها في شهر صفر من عام ألفٍ وثلاث مائة من الهجرة (1882) وتوفيت زوجته بعد سنةٍ من نفيه.

ريب المنون قدحت أي زناد
وأطرت أي شعلة بفؤاد
أوهنت عزمي وهو حملة فيلق
و حطمت عودي و هو رمح طرادي
لم أدري هل خطب ألم بساحتي؟
فأناخ أم سهم أصاب سواد
أبلتني الحسرات حتى لم يكد
جسمي يلوح لأعين العواد

لا لـــوعتي تـــدع الفـــؤاد و لا يـــدي

تقـــوى علـــى رد الحبيـــب الغـــادي

يـــا مـــوت فـــيم فجعـــتني بحليلـــة ؟؟!

كانـــت خلاصـــة عـــدتي و عتـــادي

لو كنـــت لم تـــرحم ضـــناي لبعـــدها

أفـــلا رحمـــت مـــن الأســـى أولادي؟!

أفـــردهن فلـــم يـــنمن توجعـــا

قرحـــى العيـــون روادف الأكبـــاد

ألقـــين بـــر عقـــودهن وصـــغن مـــن

بـــر الـــدموع قلائـــد الأجيـــاد

بكـــين مـــن ألم الفـــراق حفيـــة

كانـــت لهـــن كـــثيرة الإســـعاد

فخـــدودهن مـــن الـــدموع نديـــة

وقلـــوبهن مـــن الهمـــوم ســـواد

أســـليلة القمـــرين أي فجيعـــة ؟؟!

حلـــت لفقـــدك بـــين هـــذا النـــادي

لـــو كـــان هـــذا المـــوت يقبـــل فديـــة

للـــنفس عنـــك لكنـــت أول فـــاد

لكنمـــا الأقـــدار لـــيس بنـــاجع

فيهـــا ســـوى التســـليم و الإخـــلاد

هيهـــات بعـــدك أن تقـــر جـــوانحي

أســـفا لبعـــدك أو يلـــين مهـــاد

ولهـــي عليـــك مصـــاحب لمســـيرتي

والـــدمع فيـــك مـــلازم لـــو ســـاد

فـــإذا ابتغيـــت فأنـــت أول ذكـــرتي

وإذا أويـــت فأنـــت آخـــر زاد

تعس امرئ نســـي المعـــاد و مـــا درى

أن المنـــون إليـــه بالمرصـــاد

فاستهد يـــا محمـــود ربـــك و الـــتمس

منـــه المعونـــة فهـــو نعـــم الهـــاد

واســـأله مغفـــرة لمـــن حـــل الثـــرى

بـــالأمس فهـــو مجيـــب كـــل منـــاد

هـــي مهجـــة ودعـــت يـــوم زيالهـــا

نفســـي و عشـــت في حـــيرة و بعـــاد

تـــالله مـــا جفـــت دمـــوعي بعـــدما

ذهب الـــردى بـــك يـــا ابنـــة الأمجـــاد

لا تحسبيني ملـت عنـك مـع الهـوى

هيهـات مـا تـرك الوفـاء بعـادي

قد كدت أقضي حسـرة لـو لم أكـن

متوقعـا لقيـاك يـوم معـادي

فعليـك مـن قلـبي التحيـة كلمـا

ناحـت مطوقـة علـى الأعـواد

الأنة الأولى

عبد الرحمن صدقي

كـــان لي في أُخريـــات الْـــ ـعُمْــــرِ بيــــتٌ فعدمتُـــــهْ

ســـــنواتٌ أربــــــعٌ؟ أم كـــان ذا حُلْمــاً حلمتُـــه؟!

ليتــــه طـــال، ولـــو طـــا لَ، لمـــا كنــتُ ســـئمتُه

زوجـــتي صِـــنوي، ومـــا لي غيرُهـــا صِـــنوٌ علمتُـــه

هـــي لم تـــنقم علـــى نَقْـــ ـــصِي، ولا شـــيءَ نقمتُـــه

همُّهــــا همِّـــــي، فـــــلا تَغْـــزِمُ إلا مـــا عزمتُـــه

همُّنـــا الــــدرسُ، ومـــا تفهمـــــه منــــه فهمتُـــــه

نظمـــتْ بـــالعطف والتَّفْـــ ـــكِيرِ عيشـــي ونظمتُـــه

وارتضــــينا مـــن لِقانـــا عِوَضـــاً عمّـــا حُرِمتـــه

برهـــةً، وانتبــــه الدَّهْـــ ـــرُ، فعفَّـــى مـــا رسمتُـــه

أتَـــــرى الرضـــــوان ذنبـــاً أثمتْـــه وأثِمتُـــه؟

أحـــــرامٌ أنْ سَـــــعِدنا؟ أم خبـــالٌ مـــا زعمتُـــه؟

كـــلُّ مـــا أعـــرف أنّـــي كَـــانَ لي بيـــتٌ عدمتُـــه!

وهذه قصائد في رثاء الممالك الزائلة ، نتاملها جميعا لنرى ما فيها من تناص :

النص الأول :

رثاء الأندلس المفقود

أبو البقاء الرندي

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يُغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد
ولا يدوم على حال لها شان
أين الملوك ذو التيجان من يمن؟
وأين منهم أكاليل وتيجان؟
وأين ما شاده شداد في إرم؟
وأين ما ساسه في الفرس ساسان؟
أتى على الكل أمر لا مرد له
حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من ملك ومـن ملـك

كما حكى عن خيال الطيـف وسـنان

كأنمـا الصـعب لم يسـهل لـه

سبب يوماً ولا ملـك الـدنيا سـليمان

فجـائع الـدنيا أنـواع منوعـة

و للزمـان مسـرات وأحـزان

وللحـوادث سـلوان يسـهلها

ومـا لم حـل بالإسـلام سـلوان

دهـى الجزيـرة أمـر لا عـزاء لـه

هـوى لـه أحـد وانهـد ثهـلان

أصـابها العـين في الإسـلام فـارتزأت

حـتى خلـت منـه أقطـار وبلـدان

فاسـأل بلنسـية مـا شـأن مرسـية؟

وأيـن شـاطبة أم أيـن جيـان؟

وأيـن قرطبـة دار العلـوم فكـم

من عـالم قـد سمـا فيهـا لـه شـان؟

وأيـن حمـص ومـا تحويـه مـن نـزه

ونهرهـا العـذب فيـاض ومـلآن؟



قواعــد كــن أركــان الــبلاد فمــا

عســى البقــاء إذ لم تبــق أركــان

تبكي الحنيفيــة البيضــاء مــن أســف

كمــا بكــى لفــراق الإلــف هيمــان

علــى ديــار مــن الإســلام خاليــة

قــد أقفــرت ولهــا بــالكفر عمــران

حيث المساجد قــد صــارت كنــائس

مــا فيهــا إلا نــواقيس وصــلبان

حتى المحاريــب تبكــي وهــي جامــدة

حــتى المنــابر تبكــي وهــي عيــدان

يــا غــافلاً ولــه في الــدهر موعظــة

إن كنــت في ســنة فالــدهر يقظــان

وماشــياً مرحــاً يلهيــه موطنــه

أبعــد حمــص تغــر المــرء أوطــان؟

تلــك المصــيبة أنســت مــا تقــدمها

ومــا لهــا مــن طــول الــدهر نســيان

يــا راكــبين عتــاق الخيــل ضــامرة

كأنهــا في مجــال الســبق عقبــان

وحــاملين ســيوف الهنــد مرهفــة

كأنهــا في ظــلام النقــع نــيران

وراتعــين وراء البحــر في دعــة

لهــم بأوطــانهم عــز وســلطان

أعنــد كــم نبــأ مــن أهــل أنــدلس

فقــد ســرى بحــديث القــوم ركبــان

كم يستغيث بنــا المستضــعفون وهــم

قتلــى وأســرى فمــا يهتــز إنســان

لمــاذا التقــاطع في الإســلام بيــنكم

وأنــتم يــا عبــاد الله أخــوان

يــا مــن لذلــة قــوم بعــد عــزهم

أحــال حــالهم جــور وطغيــان

بــالأمس كــانوا ملوكــا في منــازلهم

واليــوم هــم في بــلاد الكفــر عبــدان

فلــو تــراهم حيــارى لا دليــل لهــم

علــيهم في ثيــاب الــذل ألــوان

يــا رب أم وطفــل حيــل بينــهما

كمــا تفــرق أرواح وأبــدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
كأنما هي ياقوت و مرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة
والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يبكي القلب من كمد
إن كان في القلب إسلام وإيمان

رائية ابن عبدون الأندلسي

في رثاء بني الأفطس

بنو الأفطس من ملوك الطوائف ١٠٢٢-١٠٩٤ م. يعتقد أنهم أمازيغ مستعربة بينما ذكر إبن خلدون أنهم من بنو تجيب من كندة ، كان مؤسس السلالة عبد الله بن الأفطس من كبار رجالات الحكم الثاني الخليفة الأموي وكانوا من رعاة الآداب والعلوم. كانت بينهم وبين بني عباد حكام إشبيلية حروب انتهت باستيلاء الأخيرين على جزء كبير من مملكة بني الأفطس. أصبحوا في نهاية أمرهم يؤدون الجزية إلى مملكة قشتالة إلى أن قضى عليهم المرابطون.

الدَّهْر يفجَع بعد العين بالأثرِ ... فما البكاءُ على الأشباح والصّور

أنهاكَ أنهاكَ لا آلُوك موعظةً ... عن نومةٍ بين نابِ اللّيث والظُّفُر

فالدّهر حربٌ وإن أبدي مسالَمَةً ... والبيضُ والسودُ مثلُ البيض والسُّمُر

ولا هوادةَ بين الرّأس تأخُذُه ... أيْدي الضّرابِ وبين الصّارِمِ الذّكر

فلا يغرّنّك من دنياك نومتُها ... فما صناعةُ عينيها سِوَى السَّهر

مَا للّيالي أقالَ الله عَثْرَتَنا ... من اللّيالي وخَانَتْها يَدُ الغِيَرَ

في كلّ حينٍ لها في كلّ جارحة ... منّا جراّح وإن زَاغَت عن النّظر

تَسُرُّ بالشّيء لكن كي تَغُرَّ به ... كالأيْمِ ثَار إلى الجانِي من الزَّهر

كم دوله وليَت بالنّصر خـدمتَها ... لم تُبق منها وسَلْ دنياك عن خَـبر
هوت بَدارا وفلَّت غَـرب قَاتِلِـه ... وكان عَضْباً على الأملاك ذا أُثُـر
واسترَجَعت من بني ساسان ما وهَبت ... ولم تدع لـبني يُونَـان مـن أثَـر
وأتْبَعت أختَها طسْماً وعادَ علـى ... عادٍ وجُرهَم مِنـها نـاقضُ المِـرَر
وما أقَالت ذَوي الهيئات من يَمن ... ولا أجارَت ذوي الغَايات من مُضر
ومـزّقت سَـبأً في كـلّ قاصـية ... فما التقَـى رائـح منـهم بمُبتكـر
وأنْفذَت في كُليب حكمها ورمت ... مُهَلْهلاً بين سمعِ الأرض والبَصـر
ودوَّخَت آلَ ذُبيـان وإخـوتَهم ... عَبْسا؛ وعَضَّت بني بدر على النَّهر
ولم تَرُدَّ علـى الضّـلّيل صِـحَّتَه ... ولا ثَنت أسداً عن ربِّهـا حُجُـر
وألحقَت بعَديٍّ في العـراق علـى ... يَدِ ابنْه الأحمـر العيـنين والشَّـعَر
وأهلكت أبرويزاً بابنـه ورمـت ... بيزَدجـردَ إلى مَـروٍ فلـم يُجِـر
وبلّغت يَزْدَجردَ الصّينَ واختزلَت ... عنه سِوىَ الفُرس جَمع التُّرك والخزَر
ولم تَكُفَّ مواضي رُسْـتمٍ وقَنـا ... ذِي حَاجِبٍ عنه سَعداً في ابْنَةِ الغِير
يومَ القَليب بنُو بدر فنُوا وسَـعى ... قَليبُ بـدرٍ بمـن فيـه إلى سَـقَر
ومزَّقت جعفراً بالبيضِ واختلست ... من غِيله حمـزَة الظّـلاَّمَ للجَـزَر
وأشْرفَت بخُبيـب فـوق فارعـةٍ ... وألْصقَت طَلحةَ الفيـاضَ بـالعفَر
وخضَّبَتْ شيبَ عُثْمانٍ دَماً وخطت ... إلى الزُّبَير ولم تَستَحْيِ مـن عُمـر
ولا رَعت لأبي اليَقْظان صُـحبَتَه ... ولم تُزوِّده إلاَّ الضَّـيْح في الغُمَـر
وأجْزَرَت سيف أشْقاها أبَا حسنٍ ... وأمْكَنَتْ من حُسين راحَتي شَمِر

وليتَها إذ فَـدَت عمـراً بخَارِجَـةٍ فَدت عَليًّا بمن شاءَت من البَشـر
فبعضُها قائلٌ: مـا اغتالـه أحـدٌ وبعضُها ساكتٌ لم يُؤْت من حَصَر
وأرَدْت ابنَ زيادٍ بالحُسـين فلـم يَبُؤْ بشِسْعٍ له قد طـاحَ أو ظُفـر
وعَمَّمت بالظُّبا فَوْدَىْ أبي أنـس ولم تَرْدَّ الّـردى عنـه قَنـا زُفَـر
وأنْزلَت مُصْعَباً من رأس شـاهِقةٍ كانت به مُهجة المختـار في وَزَر
ولم تُراقب مكان ابن الزُّبـير ولا رَعَت عياذَتَـه بـالرُّكن والحَجـر
وأعمْلَت في لَطيم الجـنّ حيلتَهـا واستوثَقت لأبي الذبّان ذي البَخر
ولم تَـدع لأبي الـذبّان قائمـةً ليس اللّطُيم لهـا عمـرٌو بمُنتصـر
وأحْرقَت شلْو زَيدٍ بعد ما احترقت عليه وجداً قلوبُ الآي والسّـور
وأظْفَرت بالوَليد بـنِ اليزيـد ولم تُبق الخلافةَ بين الكـأسِ والـوَتَر
حبَابةٌ حـبٌ رمّـان أتيـتحَ لهـا وأحمـرٌ قطَّرتـه نفحـةُ القُطـر
ولم تَعُدْ قُضُـبَ السَّـفّاحِ نابيـة عن رَأْس مروانَ أو أشياعه الفُجُر
وأسْبلت دمعةَ الرُّوح الأمين على دمٍ بفَـخٍّ لآل المصـطفى هَـدَر
وأشْرقت جعفراً والفضلُ ينظـره والشيخ يحيى بكأس الصّاب والصّبر
وأخفَرت في الأمينِ العهدَ وانتدَبت لجعَفـرٍ بابنـه والأعبُـدِ الغُـدُر
وما وَفَت بعهـود المسـتعين ولا بمـا تأكّـد للمعتّـز مـن مِـرَر
وأوثقت في عراها كـلّ مُعتمـد. وأشْـرقت بقـذاها كـلّ مُقْتـدر
وروَّعَت كـلّ مـأمُون ومـؤتمن وأسلَمت كلّ منصـور ومنتصـر

وأعثـــرت آل عبَّـــاد لعًـــا لهـــم	بذَيلِ زباءَ لم تنفر مـــن الذعـــر
بـــني المظفَّـــر والأيّـــامُ لا نزلـــت	مراحل والوَرى منها علـــى سَـــفَر
سُحقاً ليومكم يوماً ولا حملـــت	بمثلـــه ليًلـــة في غَـــابرِ العمـــر
من للأسّـــرة أو مـــن للأعنّـــة أو	من للأســـنّة يهـــديها إلى الثُّغَـــر؟
من للظُّبا وعـــوالى قـــد عُقِـــدت	أطرافُ ألْسُـــنها بـــالعِّي والحَصـــر
وطُرِّزَتْ بالمنايَا السُّـــود بيضُـــهم	أعجْب بذاك وما منها سوى الذّكر
من لليَراعة أو مـــن للبراعـــة أو	من للسّماحة أو للنّفع والضّـــرر؟
أو دفـــع كارثـــة أو ردع آزفَـــةٍ	أو قمع حَادثة تُعيي علـــى القَـــدر
ويحَ السَّماحِ وويح البأس لو سلماَ	واحسرةَ الدّين والدّنيا على عمـــر
سَقَت ثَرى الفضل والعبّاسِ هاميةٌ	تُعزي إليهم سَمَاحـــاً لاَ إلى المَطـــرِ
ثلاثةٌ ما ارتَقى النَّسران حيثُ رَقُوا	وكلٌ ما طَار من نَسْـــر ولم يَطِـــر
ثلاثة مـــا رأى العصـــران مثلـــهُم	فضلاً ولو عُزِّزَا بالشمس والقَمـــر
ثلاثة كذوات الدَّهر مُنْـــذُ نـــأوْا	عنّي مضي الدَّهر لم يربع ولم يَحُر
ومرَّ من كلّ شـــيء فيـــه أطيَبـــه	حـــتى التمتُّـــع بالآصـــالِ والبُكـــر
أين الجلال الذي غَضَّت مهابَتُـــه	قلوبَنا وعيـــونَ الأنجُـــمِ الزُّهُـــر؟
أين الإباءُ الذي أرسَـــوْا قواعِـــدَه	على دَعائم من عزّ ومـــن ظَفَـــر؟
أين الوفاءُ الذي أصْـــفَوا شـــرائعه	فلم يَرِد أحدٌ منها علـــى كَـــدَر؟

النص الثالث

رثاء القيروان

ابن رشيق القيرواني

بعد أن هاجم العرب القيروان وقتلوا أهلها وخربوها، انتقل الشاعر إلى جزيرة صقلية، وأقام بمازر إلى أن توفي سنة ٤٥٦ هـ.

كم كان فيها من كرام السادة
بيض الوجوه شوامخ الإيمان
متعاونين على الديانة والتقى
لله في الإسرار والإعلانِ
ومهذبٍ جمّ الفضائلِ باذلٍ
لنواله؛ ولعرضه صوّان
وأئمة جمعوا العلوم وهذبوا
سنن الحديث ومشكل القرآنِ
عُلماء إن سألتهم كشفوا العمى
بفقاهة وفصاحة وبيانِ
وإذا الأمورُ استبهمت واستغلقت
أبوابها وتنازع الخصمانِ

حلّوا غوامض كـل أمـر مشكـل
بدليل حـقّ واضـح البرهـانِ
هجروا المضاجع قانتيـن لربهـم
طلباً لخيـر معـرس ومعـانِ
وإذا دجـا الليـلُ رأيتهـم
متبتليـن تبتـلَ الرهبـانِ
في جنة الفـردوس أكـرم منـزل
بين الحسـانِ الحـور والغلمـانِ
تجروا بها الفـردوس من أربـاحهم
نعم التجـارةُ، طاعـةُ الرحمـنِ
المتقيـن الله حـق تُقَـاتـه
والعارفيـن مكـايـد الشيطـانِ
وتـرى جبابـرة الملـوك لديهـمُ
خُضعَ الرقاب نواكـسَ الأذقـانِ
لا يستطيعـون الكـلامَ مهـابـةً
إلاّ إشـارة أعيـن وبنـانِ
خافوا الإله فخافهم كـلُّ الـورى
حتى ضراءُ الأسـد فـي الغيـرانِ

تنسيك هيبتُهم شماخة كل ذي
ملكٍ وهيبةَ كل ذي سلطانِ
أحلامهم تزن الجبالَ وفضلهم
كالشمس لا تخفى بكلّ مكان
كانت تعد القيروانُ بهم إذا
عُدّ المنابر زهرةَ البلدانِ
وزهت على مصرٍ وحُقَّ لها كما
تزهو بهم زغدت على بغدانِ
حسنت فلما إذ تكامل حسنها
وسما إليها كل طرف رانِ
وتجمعت فيها الفضائل كلّها
وغدت محل المن وافيمانِ
نظرت لها الأيام نظرة كاشحٍ
ترنو بنظرة كاشح معيانِ
حتّى إذا الأقدار حُمِّ وقوعها
ودنا القضاءُ لمدة وأوانِ
أهدت لها فتنا كليل مظلم
وأرادها كالناطح العيدانِ

بمصائب من فادع وأشائب
ممن تجمع من بني دهمانِ
فتكوا بأمة أحمد، أتراهُم
أمنوا عقاب الله في رمضانِ
نقضوا العهود المبرمات وأخفروا
ذِمَمَ الإله ولم يفوا بضمان
فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا
سبيَ الحريم وكشفة النسوان
ساموهم سوء العذاب وأظهروا
متعسفين كوامن الأضغان
والمسلمون مقسمون تنالهم
أيدي العصاة بذلّة وهوان
ما بين مصطرع وبين معذب
ومقتل ظلماً وآخر عانِ
يستصرخون فلا يغاث صريخهم
حتّى إذا سئموا من الإرنانِ
بادوا نفوسهم فلما أنفذوا
ما جمعوا من صامت وصوان

واستخلصوا من جـوهر وملابـــس

وطـرائـــف وذخـائـــر وأوانِ

خرجـوا حفـاةً عائديـن برهـم

من خوفهـم ومصائـب الألـوان

هربـوا بكـل وليـدة وفطيـمـة

وبكـل أرملـةٍ وكـلّ حـصـانِ

وبكـلّ بِكـر كالمهـاة غـريـرة

تَسبي العقـول بطرفهـا الفتـانِ

خـود مبتلـة الوشـاح كأنـهـا

قمر يلوح علـى قضيـب البـانِ

والمسجدُ المعمـورُ جامـع عقبـة

خرب المعاطن مظلـم الأركـانِ

قفر فما تغشاه – بعـد- جماعـة

لصـلاة خـمـس، لا ولا لأذانِ

بيـت بـه عُبـد الإلـه وبُطلَـتْ

بعـد الغلـو عـبـادة الأوثـانِ

بيـت بوحـي الله كـان بنـاؤه

نعـم البنـا والمبتَنَـى والبـانـي

أعظم بتلك مصيبته مـــا تنجلـــي
حسراتُهـــا أو ينقضـــي الملـــوانِ
لو أن ثهلانـــا أصيـــب بعشرهـــا
لتدكدكـت منهـا ذري ثـهــلانِ
حزنت لها كُـورُ العـراق بأسرهـــا
وقرى الشـام ومصـر والخرســـانِ
وتزعزعـــت لمصابهـــا وتنكـــدت
أسفـاً بـلاد الهنـــد والسنـــدانِ
وعفا من القطـار بعـــد خلائهـــا
مـــا بيـــن أندلـس إلـــى حلـــوانِ
وأرى النجوم طلعـن غـير زواهـــر
فـي أفقهـن وأظلـم القمـرانِ
وأرى الجبال الشمَّ أمسـت خشعـــاً
لمصابهـــا وتزعـــزع الثـقـــلانِ
والأرض من ولهٍ بهـا قـد أصبحت
بعـد القـرار شديـــدة الميـــلان
أترى الليالي بعد ما صنعـــت بنـــا
تقضـي لنـا بتواصـــل وتـــدان

وتعيـد أرض القيـــروان كعهدهـــا
فيما مضى مـــن سالــــف الأزمـــان
من بعد ما سلبت نضائر حســنها ال
أيــام واختلفــت بـهـــا ميـتـــان
وغدت كأن لم تغن قطٌ و لم تكـــن
حرماً عزيــز النصــر غيـــر مهـــان
أمست وقد لعب الزمـــان بأهلهـــا
وتقطعــت بهـــم عـــري الـــران

تستطيع بعد تأمل النماذج السابقة من الرثاء أن تتبين فيها التناص ، وأن كلا منها متأثر بالآخر ، متناص معه ، ويبدو ذلك في :

- الفكرة العامة واحدة تقريبا فكلها يتحدث عن ضياع الدولة وانهيارها.
- كلها تشيد بملزك الدولة ورجالها السابقين ، وما كان فيها من أدباء وشعراء وعلماء وقادة ومصلحين .
- تستطيع من خلال تحليل النصوص،أن تتبين ما فيها أساليب أو أبيات متشابهة .

وهذان نصان في الوصف ، تاملهما جيدا لتتبين ما فيهما من تناص :

النص الأول :

في الوصف
إيليا أبو ماضي

و نهـــر إذا والى التجعّـــد مـــاؤه

ذكرت الأفاعي إذ تلوي علـى الجمـر

تحيط به الأشـجار مـن كـلّ جانـب

كما دار حول الجيد عقـد مـن الـدّر

و قـد رقمـت أغصـانها في أديمـه

كتابا من الأوراق ، سطرا على سـطر

كـأنّ دنـانير تسـاقط فوقـه

وليس دنـانير سـوى الـورق النّضر

كـأنّي بـه المـرآة عنـد صـفائها

تمثّـل مـا يـدنو إليهـا و لا تـدري

فما كان أدرى الغصن بالنظم و النثـر؟

وما كان أدرى المـاء بـالطّيّ والنّشـر



ذر المدح و التشبيب بـالخمر و المهـى

فإنّي رأيـت الوصـف أليـق بالشـعر

و ما كان نظـم الشّـعر دأبي و إنّمـا

دعاني إليـه الحـبّ و الحـبّ ذو أمـر

و لي قلـم كـالرّمح يهتـزّ في يـدي

إلى الخير يسـعى و الرّمـاح إلى الشّـر

و تفتـك هاتيـك الأسـنّة في الحشـى

و يحيي الحشى إن راح بفتـك بـالخير

إذا ما شـدا بـالطرس أذهـب شـدوه

هموم ذوي الشّكوى ووقر ذوي الـوقر

تبختر فـوق الطـرس يسـحب ذيلـه

فقالوا به كـبر ، فقلـت عـن الكـبر

النص الثاني :

لِلّهِ نهرٌ سالَ في بَطحاءِ

ابن خفاجة

لِلَّـــهِ نَهـــرٌ ســـالَ في بَطحـــاءِ
أَشـــهى وُروداً مِـــن لِمـــى الحَســـناءِ

مُتَعَطِّـــفٌ مِثـــلَ السِـــوارِ كَأَنَّـــهُ
وَالزَهـــرُ يَكنُفُـــهُ مَجَـــرُّ سَـــماءِ

قَـــد رَقَّ حَتّـــى ظُـــنَّ قُرصـــاً مُفرَغـــاً
مِـــن فَضَّـــةٍ في بُـــردَةٍ خَضـــراءِ

وَغَدَت تَحُـفُّ بِـهِ الغُصـونُ كَأَنَّهـا
هُـــدبٌ يَحُـــفُّ بِمُقلَـــةٍ زَرقـــاءِ

وَلَطالَمـــا عاطَيـــتُ فيـــهِ مُدامَـــةً
صَـــفراءَ تَخضِـــبُ أَيـــدِيَ النُـــدَماءِ

وَالريحُ تَعبَثُ بِالغُصـونِ وَقَـد جَـرى
ذَهَـــبُ الأَصـيلِ عَلـى لُجَـينِ المـاءِ

المصادر والمراجع

١- آفاق الرؤيا وجماليات التشكيل د. محمد صالح الشنطي - من إصدارات نادي حائل الأدبي (نسخة إلكترونية).

٢- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، شرحه وكتب هوامشه يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.١. ١٩٨٦.

٣- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، ت: محمد شاكر دار المدني - جدة ط ١ ، ١٤٢٤هـ

٤- الأعلام،خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١١. ١٩٩٥

٥- الإيضاح للخطيب القزويني ت: عبد الحميد هنداوي/ مؤسسة المختار- القاهرة ط٩ ، ١٤٤١هـ

٦- (الصناعتين) لأبي هلال العسكري ، ت : على البجاوي ، محمد أبو الفضل / دار الفكر العربي . ١٩٨٦م

٧- العمدة في نقد الشعر لابن رشيق القيرواني، ت. د. عفيف حاطوم/ دار صادر - بيروت ط١ ، ١٤٤١هـ

٨- المثل السائر لابن الأثير، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد/ المكتبة العصرية - بيروت د.ط ١٤٢٠هـ

٩- التناص نظرياً وتطبيقياً، أحمد الزعبي / مؤسسة عمون للنشر - الأردن ط٢ ٢٠٠٠م

١٠- التناص: المفهوم والآفاق، باقر جاسم محمد/ مجلة الآداب - بيروت ع٧-٩ ١٩٩٠م

١١- التناص ، مفهومه وأنواعه ، د/ محمد الأمين ولد أحمد عبد الله ، بحث ، (شبكة الأدب واللغة)

١٢- الخطيئة والتكفير، د. عبد الله الغذّامي / الهيئة المصرية العامة للكتاب ط٤ ١٩٩٨م:

١٣- السرقات الأدبية، د. بدوي طبانة دار الثقافة - بيروت د.ط ١٩٨٦م.

١٤- العمدة في محاسن الشعروآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط.٥. ١٩٨١.

١٥- الموازنة بين الطائيين ، الحسن بن بشر الآمدي ، (١-٢) تحقيق السيد صقر، ط. القاهرة.

١٦- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني .تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد علي البجاوي . منشورات المكتبة العصرية صيدا-بيروت.

١٧- انطونيوس بطرس : بدر شاكر السياب شاعر الوجع، ط١، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس،بلاتاريخ

١٨- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. عبد العزيز عتيق/ دار النهضة العربية - بيروت ط٣ ، ١٩٨٨م

١٩- تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح/ المركز الثقافي العربي - المغرب ط٢ ١٩٨٦م

٢٠- تشريح النص ، د. عبد الله الغذامي : ، ط٢، الدار البيضاء- المغرب، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦م..

٢١- خزانة الأدب وغاية الأرب ، ابن حجة الحموي ، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط. ١ . ١٩٨٧

٢٢- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر. ط.دار المعارف بمصر.

٢٣- عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوي ، تحقيق عبد الستار، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٩٨٢.

٢٤- قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر د. سمير حجازي/ دار الآفاق العربية ط١ ١٤٢١هـ

٢٥- لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر،بيروت.



٢٦- مقال : نظرية التناص حسين جمعة من مجلة اللغة العربية بدمشق ، مج ٧٥ ج٢ ذو الحجة ١٤٢٠هـ

٢٧- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني: ت: محمد الحبيب خوجة/ دار الكتب الشرقية د.ط د.ت

٢٨ – موقع سبتمبر نت (مقال : الروائي والتاريخ) د / عبد الله حسين البار.

دواوين الشعر :

١- الشوقيات ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٠

٢- الأعمال الكاملة ،إبراهيم ناجي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة .

٣- الأعمال الكاملة ، نزار قباني ، منشورات نزار قباني ، بيروت ١٩٧٠

٤- ديوان المتنبي ، دار العودة ن بيروت ١٩٦٩

٥- ديوان توفيق زياد ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٠ م

٦- ديوان حافظ إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٥٣.